


# بين الجمود والجحود

المختار السوسي

المختار السوسي

# بين الجمود والجحود

روايـــــة



**[I]**

## ولكن أين الأمة؟

إعداد وتقديم عبد الكريم الجويطي

نشرت «رواية» بين الجمود والجحود في مجلة دعوة الحق بين سنتي 1957و1958، في تسع حلقات. وقد أشارت إدارة المجلة إلى أن النص كتب قبل ذلك بعشرين سنة تقريبا، أي في سنة 1937، وكان العلامة المختار السوسي قد عنونه ب: « بين الجمود والميع»، وارتأت إدارة المجلة أن تحور العنوان ليوائم سياقا انتصرت فيه هذه الصيغة منذ أن نشرت المجلة مقالا للزعيم الأستاذ علال الفاسي بعنوان» بين الجمود والجحود» حاول فيه، ومن منظور سلفي، أن يجيب عن سؤال النهضة، والسبل المؤدية إلى اللحاق بركب الحضارة، فدعا إلى نبذ الجمود الذي بموجبه يصان التخلف باعتباره قدرا وخصوصية، ويقدم فيه الانحراف عن الدين الذي خالطته الخرافة على أنه هو الدين الحق الذي لا ينبغي المس به. ودعا أيضا إلى نبذ الجحود الذي يقوم على انبهار تام بالغرب ومنجزاته، ويتحامل على الدين وينادي بإبعاده عن الحياة العامة كما فعل أهل الغرب، فحققوا ما حققوه من رقي وتقدم. وختم مقاله بالدعوة لتدين إنساني منفتح على قيم عمارة الأرض، وازدهارها، واستواء العدالة بين أفرادها. فالجوانب التي انحرف عنها الناس من شؤون الملة هي ما «يرجع للنواحي الاجتماعية، وما يمس الحق العام، أو يتناول صلة الأفراد بالحاكمين وصلة مجموع الأمة ببعضها». كان لمقالة الزعيم هذه وقع في الحياة الفكرية آنذاك، ولا شك أن العلامة المختار السوسي قد تذكر مخطوط نصه هذا، وأخرجه في خضم هذا النقاش الحامي لما بعيد الاستقلال حول سبل بناء نهضة مغربية شاملة.

لم تختلف الأمة وهي تقارع الاستعمار، ولم تختلف أيضا في كونها مريضة، لكنها اختلفت في تشخيص أسباب المرض وسبل الشفاء، اختلفت في تصور الغد وترتيب الأولويات، اختلفت حول مكانة الدين وشكل النظام السياسي وأسس الاقتصاد ومناهج الحكم والقيم الأخلاقية ومكانة المرأة، والموقف من العادات، والتقاليد وزيارة الأضرحة والتبرك بها، بل اختلفت حتى حول شكل اللباس. كانت مرحلة بناء وتوتر ونقاش عام، يحاول أن يعلو على أحقاد بدأت تتراكم، ويحاول أن يحتكم للأفكار بدل الاحتكام للسلاح بين رفاق الأمس، وللضربات الغادرة التي صارت تقع هنا وهناك. ولأن صراع الأفكار والمشاريع يدار في الغالب الأعم، باعتقاد امتلاك الحقيقة، فإنه لا يخلو من شيطنة الآخر وتنميطه. هكذا.. يمكن أن نلاحظ من خلال كتابات المرحلة، إبان الاستعمار وما تلاه بما فيها رواية «بين الجمود والجحود»، بـأن الصراع لا يحدث بين أشخاص متفردين لهم حياة، وأحاسيس، ورؤى وآمال وإخفاقات، وإنما بين أنماط شبه جامدة لها خصائص عامة تدأب على التماثل معها: نجد الوطني والخائن، والأصيل أو المعاصر، والسلفي والمغترب، والماجن والمتصوف، والغارق في الحياة اليومية. كنا إزاء شعب وثقافة يتلمسان انقساميتهما، ويتعرفان عليها من خلال تأكيدها، والسعي لرتق شقوقها...

كتبت رواية «**بين الجحود والجمود**» إبان تجربة المنفى التي عاشها العلامة ابتداء من 11 مارس 1937 بمسقط رأسه إلغ، وخصوصا في مرحلتها الأولى القاسية التي فرضت عليه فيها إقامة جبرية، لا يخالط فيها إلا أهله وزوار زاوية والده. ولأنه امتلك دوما ذكاء تحويل النقمة إلى نعمة، فقد جعلها من أخصب مراحل عمره بحثا واستقصاء، وتدوينا وكتابة إبداعية. فيها انشغل بالرواية الشفوية، والأخذ من أفواه الرجال، وبجمع المخطوطات وترتيبها،

والانهمام بذاكرة المكان المتعددة التي تبدأ من تاريخه والأحداث الجسيمة التي وقعت فيه إلى أعلامه وما قيل فيه من شعر، وما أنجزت فيه من كتابات، وما أنتج فيه من تقاليد وعادات، وتصل حتى لعب الأطفال فيه. لم يترك العلامة شيئا جديرا بالاهتمام لم يهتم به، ولو أسعفه الوقت لقلب أحجار سوس نفسها بحثا عما تخفيه تحتها.

ولأن المختار السوسي اختار أن يحارب فكريا وإبداعيا على واجهتين : وطنية ومحلية، فشارك في بناء الحركة الوطنية من خلال المساهمة في تأسيس جمعيات سرية وعلنية، ووضع اللبنات الأولى لتعليم عصري وطني أريد له أن يكون مشتلا لغرس القيم، وبناء رجال الغد، فإن وطنيته الكبيرة هذه لم تحل بينه وبين الاهتمام البالغ بالبلاد التي ولد فيها وفاء لها أولا، وتكريما لعطائها الفكري والإبداعي والديني ولأعلامها ثانيا. وإيمانا منه بأن مغرب الغد لن يبنى إلا ومناطقه قد نفضت عنها تراب الخنوع، وانتصبت قوية وفاعلة، ولن تتسنم ما يليق بها من عزة ورفعة إلا وهو يقاوم آلة المحو الرهيبة التي أعملها الاستعمار في أوصال البلد لفصل المغربي عن ماضيه وجذوره وثقافته. لم يكن عمل المختار السوسي يقارع النسيان فقط، بل إنه كان يحارب احتقار الذات والتقليل من شأنها. ولن نجد ربما، وفي العالم العربي برمته، مقاوما جعل الثقافة، والثقافة وحدها مبتدأ ومنتهى مقاومته، ولا من كان القلم في يده سلاحا حقيقيا مثلما فعل المختار. وكما تمخضت مرحلة المنفى عن كتب حول تاريخ وثقافة وأعلام سوس، فإن هذه المرحلة منحتنا ـ على الأقل- نصين عجيبين للمختار هما رواية «بين الجمود والجحود»، ونص الدكتور طه حسين في إلغ، الذي تخيل فيه زيارة طه حسين لألغ، فكانت مناسبة ليحاوره في بعض كتاباته، وعلاقة الأدب بالواقع، وخصوصا اعتباره حياة أبي نواس مرآة

لواقع بغداد. وكال العلامة المديح في نصه هذا للعزلة وللحرمان من الوسائل الحديثة، واعتبار كل ذلك منة من الله : «وأكبر منة من الله علي أن آلفني أن أحيا دون ما لا يحيا كثيرون من أبناء هذا العصر دونه...».

من تجليات هذه المنة الإلهية طاقة الخيال التي منحها، وأمكنه من خلالها أن يحاور طه حسين، وأن يجوب بعض المدن المغربية كما هو الحال في رواية «بين الجمود والجحود» ليمنحنا نصا مؤسسا، يمكن اعتباره من عتبات وبواكير استنبات الكتابة الروائية في تربة الأدب المغربي، مثله في هذا مثل نص «الزاوية» للتهامي الوزاني وإن كان سابقا عليها. هل كان الرجل الصوفي السلفي المنشغل بالقضايا السياسية للبلاد، والحريص على تجويد موسوعية أرادت أن تبحث في كل شيء، وتقول كل شيء مهيئا لإنجاز هذه الخطوة النوعية في السرد المغربي؟ لا شك أن العلامة، وفي مراحل تكوينه الأولى، قد حرص على أن يتقن علوم عصره، وأن يتماثل مع صورة العالم في أكمل تجلياتها، فشد الرحال إلى مراكش (جامع ابن يوسف) وبعدها إلى فاس، حيث القرويين ومنها إلى الرباط، وتتلمذ على يد مشايخ وقته مثل الشيخ شعيب الدكالي، والعربي العلوي، وصار متمكنا من علوم الأصول واللغة، والقراءات والحديث والتفسير، وحفظ عشرات المتون، بل حفظ حتى بعض شروحها. غير أنه لم يقنع بهذه الثقافة التقليدية المنغلقة على نفسها والتي تقوم على الحفظ والترديد، وتقديس السلف، وعلى ثنائية الشيخ والمريد، وحاول أن يكون له، وباجتهاد شخصي، نصيب من الآداب والفكر الحديثين، لنسمع له وهو يحدث طه حسين عن نفسه في النص السالف الذكر» قلت له إنني ممن ولد في هذه القرية البعيدة عن العالم المتحضر، ثم حبتني السعادة فزاولت من العربية وعلومها وآدابها ما حولني من مسلاخ بربري إلى مسلاخ عربي فكرا وذوقا وغيرة وشعورا

وعواطف، وقد تخرجت من كلية «ابن يوسف «، ثم من القرويين وزاولت الحياة العصرية وأفكارها، وقرأت لغالب كتابها ومفكريها الشرقيين وكانت كتب حضرتكم يا عميد كلية الآداب في مصر مما حظيت بقراءة جملة كبيرة منها». وإذا أضفنا إلى هذا الميل للفكر والآداب الحديثين طاقة شعرية غزيرة، وشغفا بالحكايات والروايات الشفوية، وتعلقا أكيدا بالسرد في كل تجلياته، وممكناته، كل هذا مع إيمان وتعلق بقيم المدينة، وتفضيل لطبيعة الحياة الاجتماعية فيها، رغم تعقيدها وتشابكها، على جفاء وقسوة البادية. فإن كانت البادية للمختار السوسي هي الجذور والهوية العشائرية القبلية والأصالة، فإن المدينة هي المواطنة والجديد والحي والإنساني. كل هذه العوامل أهلته ليكون أحد رواد التأريخ الإقليمي بمعناه الشامل بالمغرب، ويكون أيضا أحد رواد الأدب المغربي، وأحد الذين عملوا على أن يرتاد هذا الأدب آفاقا جديدة.

تبدأ «الإخوة كارامازوف» المغربية برسالة تصل لأحدهم وهو ضجر ومتشوف لمخرج يريح به نفسه. رسالة كتبت في 20 ربيع الثاني 1340 الموافق ل 19 ديسمبر 1929، والتاريخ هنا مهم جدا، فهو يثبت أن النص كتب فعلا في مرحلة النفي بإلغ. تدعو الرسالة التي كتبها إبراهيم من وجدة،بطل النص، إلى التدخل في شأن عائلي يخص أربعة إخوان صار: (بينهم جميعا بون بعيد، فقد انقطعت صلة الرحم بينهم، وضاعت وصية الوالد، بأن يجعلوا أمرهم واحدا، وشملهم مجتمعا. أضاعها السيد العربي الصوفي والسيد حماد المتفرنج، والسيد سعيد الغارق في الملذات والمخدرات. تقترح الرسالة على بطل» الرواية « تنظيم مناظرة بين الإخوة الأعداء وكتابة محضر ما دار فيها لتستفيد منه باقي الأسر، فالقطر» يجتاز طورا صعبا يتناطح فيه القديم والجديد، ويعيش أهله بين «جمود وجحود «، وعليه قبل ذلك أن يزور كل هؤلاء الإخوة الثلاثة ليزدادوا

به معرفة، ولأن ذلك أكثر إطلاقا لألسنتهم حين المناظرة. سيزور البطل السيد العربي القاطن بسلا وسيخلص بعد محاورته، ووصف حاله إلى أنه يعاني «من جهل كثيف بهذا العصر»، وسيزور السيد حماد في مراكش (نلاحظ أن اختيار المدن هنا له علاقة بما عرفت به هذه المدن وطنيا، وهناك تماثل بينها وبين من يسكنها من الإخوة) الذي يدين للغربيين بمعارفه ونظرته للأمور، بل إنه صار يتشبه بهم في كل شيء. ثم سيذهب لزيارة سعيد في فاس الذي يتبع ملذاته، ولا مبدأ له، يتقلب مع هواه في كل حين. وأمثال سعيد «ظواهرهم عامرة وبواطنهم خراب»، وسينتهي بزيارة ابراهيم الذي انتذبه لهذه المهمة ليقدم له خلاصة لقاءاته مع الإخوة. لا يخفي البطل إعجابه بابراهيم فهو «الصفي الخليل القليل النظير بين شبابنا المثقف العامل»، وهو «المرن على النظام في كل شؤونه». ولأن المناظرة ستجري في مؤتمر ينبغي تنظيمه، فقد انشغل بطل النص وابراهيم بتوحيد الرؤى بين حماد الذي أراد إرجاء المؤتمر حتى يستقر وراء تأملاته، وإخوته الذين يصرون على تنظيمه في وقته، وخصوصا السيد العربي. قبل البطل وابراهيم ارجاء المؤتمر للشهر القادم، وكتب له رسالة لتهدئة حيرته، وإرشاده حول الخلق والوجود والروح والجسم، ودعاه لتامل نفسه وإجالة بصره وعقله فيها، وان للعالم خالقا لا يدركه سماسرة الإلحاد وأسرى المادة». ثم سيفاجئان بزيارة للسيد العربي رفقة الفقيه العلامة أحمد عبد السلام، وستكون فرصة لمناقشة مجموعة من القضايا كالرفق بالمخالفين والتؤدة في ارجاعهم للدين، ومسألة الاجماع في العلم كما يراها المشايخ، ومسالة التأويل وسلامة السلفية والصوفية. وحينما اقترب المؤتمر تلقى بطل النص رسالة من حماد يعلن له فيها بأنه وصل لحقيقة «وجود قوة عالمة حكيمة تفعل بإرادة»، ويسأل عن نواميس الطبيعة، وهل هي واحدة أم

جماعة متفقة أتم اتفاق أبدي تدير هذا العالم ؟. وكان الجواب قصيرا، ومن أهم ما جاء فيه، تهنئته بتحرره من التقليد واعتماده على نفسه للوصول للحقيقة، ودعوته لدراسة مذهب الروحانيين الذين يقولون بأن هناك وجودا لا يرى ولا يلمس، وهناك كائنات لا سلطة للمادة عليها. وهو ما فعل حماد وبعث رسالة فصار يؤمن بأنه « لم يكن أبناء آدم فقط وحدهم من الأحياء هم الذين يحتوي عليهم هذا الوجود، فهناك عالم آخر يشعر كما يشعر كما يشعر بنو آدم «. وستتوالى الرسائل بين الرجلين لاثبات العالم ان العقل له «حد محدود تنتهي اليه مداركه»، وتنزيه الله عن مشابهة العالم.

لذلك لا يدرك بأدوات العالم. سيزور البطل حماد استجابة لدعوته، وجده تغير تغيرا عظيما. دخل عليهما شاب مجلبب مطربش من آل بنيس كان قد حدثه عنه ووصفه بأنه نابغة. ولأن البطل حدس بأن الشاب خليع مستهتر، فقرر أن لا يفارق حماد حتى يسوقه نحو المكانة التي أرادها له. استعجله السفر نحو المؤتمر، وعرض عليه تمضيه. دار نقاش عميق بين الرجلين حول تقزز حماد من مظاهر تدين الهمج والرعاع، واختياره لدين الفلاسفة العظام من العلماء الغربيين. غير أن بطل النص بين له خطأ الخلط بين الأصل وما لحقه من انحراف. وبما أن « العلم شاع بين الناس أجمعين، وفوائده ليست شرقية ولا غربيه، والمدنية لا تستقر في أمة بالخصوص «، فمن يحتقرهم حماد اليوم وهم أهل الشرق هم أباء المدنية والحضارة الغربية.

يختتم النص «بين الجمود والجحود» بوقائع الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الذي يعرض فيها بطل النص برنامج المؤتمر، ويطلب المداولة حوله، ثم يلقي خطبة الافتتاح التي تضمنت الاسئلة التي ستناقس، وأعلم الحاضرين بالقانون،

ثم رفعت الجلسة على أن تستأنف في المساء ابتداء من الساعة الرابعة. لن نعرف ما دار في المؤتمر لأنه ـ لامحالةـ سيكون تكرارا لما دار من مناقشات بين بطل النص والاخوة، فكل ما دار بينهم هو المؤتمر نفسه. انتهى المؤتمر قبل أن يبدأ،لان البطل تمكن من إقناع الأخوة بالانفتاح على بعضهم البعض، واقنعهم بأن لا أحد منهم يمتلك الحقيقة، لأنها كامنة في المسافة الموجودة بينهم، وعلى كل واحد منهم أن يتحامل على نفسه، ويسير نحو الآخر منفتحا ومنصتا. دافع النص عن فكرة إمكانية بناء نهضة قوية يشكل الدين قاعدتها الصلبة، دين الأصول الذي يدعو للعلم والمعرفة، وينشد الحكمة أنى وجدها. يأخذ سبيل الحضارة ومنجزاتها وآليات عملها ويحذر الذوبان فيها.

يمكن فيها اعتبار نص «بين الجمود والجحود» من النصوص المؤسسة التي تشكلت إرهاصات استنبات الرواية في الحياة الأدبية المغربية. لا تكمل كل العناصر الشكلية والفنية للرواية في هذا النص، ولكنها موجودة وإن بشكل جنيني، ولعل أهم عنصر من عناصر الرومانيسك هو نشوء الرواية في خضم تحولات عاصفة، تتمزق الأسر، تتبدل القيم، تصعد فئات اجتماعية وتندحر أخرى وتولد مفاهيم جديدة، وتتعمق عزلة الفرد، ويصعب عليه أن يطمئن كل الاطمئنان لاي قناعة أو مبدإ أو توجه. إنه عصر الشك والنسبية، وزواج الأنا بالآخر، والخير بالشر، والنور بالظلام، وتحول الحياة التي كانت متسقة إلى مزق متناثرة، وهذه التحولات العاصفة هي التي حاول العلامة أن يضع أصبعه عليها. فالأمة لم تعد متلاحمة ومتعاضدة الى درجة الاحساس بأنها لم تعد موجودة، أين الأمة؟ يصيح السيد العربي، ويوافقه بطل النص. فكان متعاضدا مترابطا تحول إلى أشتات متنافرة، لا تهتم الرواية بالانقسام في ذاته، وإنما بالمنظورات التي تتمخض عنه، وبالتعدد اللغوي الذي تستتبعه. وبهذا

الصراع الذي ينشأ ويستوي في مجتمع مأزوم، وفاقد للبوصلة، مجتمع فقد معالمه القديمة، ومراجعه ويتردد في الدخول لعوالم الحداثة. إن غياب الأب الذي يطلق الدينامية السردية للنص وتشرذم الإخوة وانتصاب حواجز حقيقية او وهمية بينهم. ودخولهم واقع اليتم لا كلوعة وخصاص عاطفي، وانما كعجز عن الحفاظ عن المشترك بينهم. إن ما سيقوم به بطل النص هنا هو لعب دور الأب، الموحد والحامي للمشترك .

تشتغل داخل البنية السردية للنص بقايا الأشكال السردية التراثية، وخصوصا المقامة. فالحكي يستهل بصيغة إسنادية تقتفي التقليد وتبطله في الآن ذاته :»حدثنا بعضهم قال..»، فلا نعرف هوية من قال، ولا هوية من سمع «. هناك أب يحكي ولكنه مجهول، مثله في هذا مثل أب الأخوة، تقوم بنية الحكي التراثي على حكاية مركزية تتناسل فيها حكايات فرعية، يحتفظ النص أيضا بهذا التقليد لكنه يخلق دينامية سردية تبطله، فهو لا يعود في مستهل كل فصل للتذكير بالحكاية الإطار. تحررت لغة النص من كل أثقال البلاغة القديمة، وجاءت دقيقة رشيقة، بل سابقة لعصرها. فالمختار السوسي في هذا النص المؤسس لم يتلمس معالم أدب جديد، وإنما فتح أيضا أفقا لنثر تفننت فيه اللغة في التقاط تفاصيل واقع جديد لا بحليها وأزيائها ..

**[II]**

## نص الرواية

**[1]**

حدث بعضهم قال: كنت في حين من الأحيان منهمكا في شغل متعب حتى ضجرت ضجرا عظيما حال بيني وبين الطمأنينة التي أستمد منها دائما في حياتي متعة الحياة، ولذة الفؤاد، فتمنيت لو أتيح لي سفر مريح أسترد به ما فقدته من البهجة والسرور، فلم يطل الزمان عن جولان هذه الأمنية في صدري إذ ألقى إلي موزع البريد هذه الرسالة:

وجدة، 20 ربيع الثاني 1340

الأخ الذي لا أنساه...

لا أدري هل تسر كثيرا باقتراح سنح لي أمس أن أعرضه عليك، فقد أجمعت على أن أعقد من أسرتنا مجمعا عاما، لحل ما كنت أشكو إليك به دائما من أننا إخوة أربعة، كل واحد منا مول وجهته إلى فكرة ارتضاها لحياته.

فأخونا الأكبر السيد العربي، غارق في صوفيّته، لا يبغي بها بديلا، ولا يرى للذتها في الحياة مثيلا، حتى أداه ذلك إلى أن كاد يطلق أسباب المعاش، فأوشك أن يقف على عتبة الإعواز، وأن يعرض ما بيده من الرباع والعقار للبيع.

وأخي الآخر السيد سعيد سادر في غلوائه، يتسكع بين المقاهي البلدية القديمة، فلا يكاد يفارق متجره الذي يتابع فيه النمط القديم في المقايضة والأخذ والعطاء، حتى يندغم ثانيا بين جماعات أغمار أنذال، ثم لا يزال الأفيون والحشيش والمعجونات المخدرة تفعل فعلها فيهم إلى أن يبهار الليل، وربما يبقون كذلك إلى الثلث الأخير، وفي هذا يمضي جل دخله، وإن كان ما

يدخل عليه ليس بقليل، ومتى عاتبه معاتب على ما فيه تظاهر حينا بالتوبة والإقلاع، وحينا احتج بالقضاء والقدر، وهو كما تعلمه منه لسِنٌ لا يعوزه البرهان، ولا ينقصه علم يستمد منه الأجوبة المقنعة، إلا أن الواقع أنه سائر في طريق غير محمود العاقبة، ولا مرجو السلامة.

على أنه أحسن حالا في الجملة من أخينا الآخر الصغير، العظيم الطيش، الكثير النزق، الذي لم يدع له تفرنجه أذنا يسمع بها نصيحة من أحد بين قومه، فقد رأى من نفسه بعد أن حاز الدكتوراه في الحقوق وفي الأدب، أنه من أعاظم العالم، فلم يسمع لما كنا نسديه إليه من نصح يوم عاقد تلك المرأة النمساوية التي اقترن بها، اقترانا مدنيا، ثم أقبل بها إلى قومه، فلم تزل تستنزف ماله بتبرجها وتبذيرها، وحياته وعقليته بمعاقرتها، حتى كاد يقف موقف المدقعين، فلم يجد بدا من مفارقتها ليسترجع حريته، ولكنه حين لم يكتسب عقلية قومه الذين يعيش بينهم، وليسوا تحت بصره إلا همجا رعاعا جهالا، صار كالزئبق الذي يترجرج في كف المرتعد، فلا يستقر على حال، ولا يكاد يستبين محجّة تعبد أمامه إلى الحياة، فنظرت إليه نظرة الإشفاق والحنو لمكانة الرحم بيننا، وقد تناسيت كل ما كنت سمعته منه قبل اليوم من المجابهة بالسوء -فواصلت به يدي- وأتيته من الباب الذي أعرف أنه لا ينفتح لعقله سواه، فلم أزل أرادّه بأقوال حكماء الفرنج، وأمثل له حياتهم، حتى أسلس القياد لما أقوله، فاستطاع أن يقر به قرار في عمل جديد استقبله، ولم يبق إلا أن أراوغه على الزواج من امرأة من قومه الذين يعيش بينهم، فلم يزل معي ولم أزل معه في ذلك بين اختيار وشروط، حتى وقع رضاه على إحدى الأوانس التي ربما ترضيه إن تماسك عن ميدان تفرنجه ولو تماسكا ما، فها هو ذا قد أملك، وسيعرس في شوال إن شاء الله، كذلك كان الأخ حماد أصلحه الله.

إنني كنت دائما في حيرة من هؤلاء الإخوان الثلاثة، فبينهم جميعا بون بعيد، فقد انقطعت صلة الرحم بينهم، وذهبت وصية والدنا المرحوم هباء منثورا، فقد كان آخر ما وصانا عليه ونحن نغمض عينيه، أن نجعل أمرنا واحدا، وشملنا مجتمعا، وأن لا نفرط فيما ورثناه من الرباع والعقار، وقال: إن رضاه مقصور على من تتبع هذه الوصية.

وإذ كنت دائما حريصا على أن لا أفلت رضى والدي المرحوم، حاولت أن أحمل إخواني - فضلا عن نفسي - على أن يسير الجميع في الصراط المستقيم الذي يوصل إليه، ولهذا كنت أبذل دائما جهدي على قدر طاقتي في استصلاح حالهم، والتئام شملهم، وفي تعهد المواصلة بينهم.

إلا أنني دائما ألقى المشقة الفادحة في وصل الحبل بين الأخ السيد العربي الصوفي، وبين الأخ حماد المتفرنج، فإن ناريهما لا تتراءيان، فإن حمادا ينفر أشد النفور من المذكور وينعته بأسوأ الأوصاف، ولا يسميه إلا بالخرافي الجاهل المغفل - وإن لم يكن في الحقيقة في نظري أنا كذلك- وكذلك الآخر قلما يريد أن يذكر حماد بين يديه، ومتى ذكره ذاكر يثور ثائره، ولا يزال يصب اللعنات على الكفار والملحدين المشاقين لله والرسول. ومتى حاول محاول أن يخفف من غلوائه قال: إنني منه براء، فليشهد الله والملائكة والناس أجمعون بذلك، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]، ثم لا يزال يثر بمثل هذه الحجج والبراهين من الآيات والأحاديث، حتى يتمنى جليسه أن يسكت.

وما كانت سبب هذه النفرة الشديدة إلا تربية السيد العربي لحماد في حين طفولته، فكان يحاول أن يسلك به في طريقته، ولكنه بعد أن أثرت فيه

البيئة تأثيرها، ومالت به التعاليم التي تلقاها ميلا آخر، صار يواجه أخاه الكبير من غير حياء بكل ما يكره، وربما سب دينه سبا يكاد به السيد العربي يخرج من جلده حنقا وغيظا، وهو معذور إن غضب لدينه ولقوميته.

ثم بعد أن شب حماد، واستغنى عن المسح شاربه، وهاجر إلى أوروبة سنين، رجع كما يرجع غالب أمثاله إلا من عصمه الله، فحين سمع أخوه الأكبر أنه يلبس البزة الفرنجية وأنه محلوق الذقن، لا يفارق الدخان فاه، ولا المحجن يده، وأنه لا يعرف الصلاة ولا يقوم بها، صار يتبرأ منه في كل مجلس ذكر فيه أمامه، فينقل نقلة الخبر السيء كل ذلك إلى حماد فيجيب بأقبح وأشنع.

هكذا اتسعت الشقة بينهما، ثم لما عثر الزمان بحماد تلك العثرة المتقدمة، يوم فجعه في قرينته الفرنجية، وحاولت أن يصيخ لي، وأن يجعل بعض ما أقوله له - إن لم يكن كله - في موقع القبول، كنت أبين له برفق وتؤدة، وكلام لين، مقدار غلظته بينه وبين أخيه الأكبر الذي كان أمضى زمنا في تربيته، وفي الأخذ بيده في عهد طفولته، فسردت عليه من كلام فكتور هيجو، وشكسبير، ولامارتين، فيما يتعلق بمثل ذلك، فاستطعت أن أخفف قليلا من الذي يحمله في صدره نحو مربيه، وبعد ما استقر ذلك في نفسه ذكرت له في عرض حديث: أن الأولى للإنسان أن يجتمع مع مخالفيه، ويناظرهم، فلعل الحق يكون في رأي مخالفيه، ويكون هو له من الجاهلين، فالحقيقة بنت البحث، فما دمت مستقر الرأي على ما تمسكت به إلى الآن، يمنعك من أن تجتمع مع أخيك السيد العربي وتناظره، فإن كنت أنت فيما ذهبت إليه محقا ازددت بصيرة، وإن كان هو عين المحق ازددت علما جديدا كنت تجهله قبل، فقد قال فلان الفرنسي: لا يذهب بك العجب والبطر مذهبا بعيدا في رأي تراه، ولو أمضيت

فيه جل عمرك، من أن تستمع إلى رأي يعاكسه، فلولا هذه الطريقة في الفلسفة وفي العلوم المادية لما ترقت المدنية الغربية هذا الترقي، ولما غاص الناس بالعلم على أعماق البحار، ولما طاروا في أجواز الجو كل مطار، ولما اتصلت أطراف الكرة الأرضية بالمذياع والبرق حتى زالت الأبعاد بين سكانها.

فلم أزل به تحت كلام الغربيين حتى وعد أن يجتمع بأخيه السيد العربي متى دبرت ذلك الاجتماع، فلم يصعب علي أن أقنع الآخر الصوفي في الذي سيؤول به هذا الاجتماع من دعوة حماد إلى الإسلام من جديد، فإن الواجب على المسلم أن يكون داعية إلى دينه، ثم اعتقاد أن الهداية من الله (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ) الغاشية: 22-21] (لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) [البقرة: 272]

والآن صح العزم على عقد هذا الاجتماع في أواخر هذا الشهر، وحين كنت عرفت أنك معروف عند كل هؤلاء الإخوان بأنك من أصحابي المعتمد عليهم، سنح لي أن تحضر المجمع، فلعلك تكون فيه حكما مرضيا، أو مؤيدا مسلم الحجج، أو تكون شاهدا على الأقل، لأنني بفضل ما منّ الله به علي من مشاركة السيد العربي في علومه الإسلامية المتداولة، ومن مشاركة حماد في علومه الغربية مع معرفة اللسان الفرنجي الذي يعرفه، سأمثل ما استطعت دور الوساطة بين الطرفين، فأرادّ كل واحد منهما بما أراني الله، على وفق ما أرانيه حقا.

وقد بدا لي أن المناظرة ستجول في ميادين شتى، يركب كلا الطرفين فيها شططا، ويعتقد فيها ما يعتقد غلطا، وحين كنت أنت تعرف مذهبي، وما

كنت أعقد عليه نيتي ومعتقدي، وكنت أنت حيث كنت في الأخذ بالأيدي إلى الحق برفق وهدوء، أرى أنه يتعين عليك الحضور لتكتب محضر الجلسة، لئلا يذهب ما يمضي بيننا سدى، فلعل ذلك ينفع في رجال أسرة أخرى وقع فيها ما وقع في أسرتنا من أفكار مختلفة، وآراء متضاربة، ومبادئ متعاكسة، وما أكثر اليوم أمثال هذا الذي يجتاز طورا صعبا يتناطح فيه الجديد والقديم، ويعيش أهله بين جمود وجحود.

هذا، ولا تنس إن ظهر لك حضور هذا المجتمع، أن تجتاز على كل هؤلاء الإخوة الثلاثة فتبيت عند كل واحد منهم ليزدادوا بك تعرفا، فإن ذلك أكثر إطلاقا لألسنتهم حين المناظرة، ووصِّ الأخ الأكبر السيد العربي على مدلول قوله تعالى: (وَقولا له قَوْلا لَيِّناً لعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى) [طه: 44] وقوله أيضا: (ادع إلى سَبيلِ ربِّكَ بالحِكْمةِ والموْعظةِ الحسَنةِ وجادِلهُم بالّتي هيَ أَحسَنُ) [النحل: 125]، وقوله أيضا: (وإنّا وإيّاكُمْ لعَلى هُدًى أو في ضَلالٍ مُبين) [سبأ: 24]

فإنني أرجو أن سلك هذا المسلك، أن ننجح في الأخ حماد هداه الله، وكذلك داول ذلك مع حماد ليراعي شيبة أخيه وحق تربيته، فلا يقول في الدين ولا في كل ما يناظره فيه إلا ما يراه حقا، وليجعل عينه إلى تطلب الحق، فإنه لا يعوزه الوصول إليه متى تطلبه بأدبه، فالأدب أساس المناظرة، ولا تنس أن تقول له ما قال شكسبير: (اطلب ما تريده بابتسامتك فذلك خير من أن تشق طريقك إليك بسيفك) وما قال ماغون: (ليس من خطة للتصرف أفضل من الأدب، ما دام الأدب ينجح غالبا حيث يفشل أفصح لسان) فأكد حمادا على أن لا يستحقر أخاه ومربيه، وأن لا تحمله مرتبة الدكتوراه على احتقار

شيخ قضى عمره على النمط القديم، فإن ذلك يتنافى مع أدب المجالسة، فقد قال فريد دوغلاس: (إن لنكن هو أول رجل عظيم تحادثت وإياه بحرية في الولايات المتحدة، فلم يذكرني في حادثة واحدة بما بيني وبينه من الفرق واختلاف اللون، فقد كان دوغلاس اسود، والآخر رئيس الولايات المتحدة وبطل حربها لتحرير العبيد.

ولا تنس الأخ الآخر التعس ضحية الأفيون والحشيشة، وإن كان – على ما أرى – لا يرجى منه خير وإن كان اليأس منه لا ينبغي، فالنواصي بيد الله يقلبها كيف شاء، فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

وختاما استعجل منك برقية إن ظهر لك أن تجيب هذا المقترح، وإلى اللقاء.

صاحبك إبراهيم.

[2]

وقع علي ذلك الاقتراح موقع الماء السلسبيل من صاحب الغليل، فسرعان ما أبرقت مجيبا بالقبول، ثم جمعت متاعي، وزممت حقائبي، وأخذت مكاني في القطار بعدما أرسلت إلى السيد العربي هذه الرسالة:

«العارف بالله السيد العربي بن محمد القاطن في سلا، السلام والرحمة على تلك الحضرة الربانية، والهمة القدسية، وعلى من تشتمل عليه من الحاشية، من الأحباب والغاشية.

أما بعد فبعد تقبيل أيديكم المباركة تقبيلة مريد مخلص ليد شيخ عالي المقام، ظاهر الغيرة على الإسلام، أعلمكم أنني سأتشرف بالزيارة لحضرتكم السعيدة يوم الأربعاء الآتي، وهو السابع والعشرون من الشهر الحالي، كتبت إليكم لأجدكم في محلكم، سقانا الله مما سقاكم، وأسبل علينا رضاكم، والسلام.

23 ربيع الثاني 1340هـ

أخوكم: فلان

طرقت باب دار السيد العربي، فقالت الخادم: إنه في الزاوية، فلم أمش إلا خطوات حتى رأيته مقبلا، فحييته وحياني، ورحب بي كثيرا بوجه بشوش ثم فتح ثوى الدار، فجلسنا في قبة فسيحة مفروشة بفرش ساذجة، وإن كانت نقية نظيفة، وكان الوقت الحادية عشرة صباحا، فلم نمكث كثيرا حتى عرض علي الوضوء وقال: إن الصلاة أزفت، فإننا نصلي في الزاوية الظهر زوالا، فأدينا الظهر في الزاوية، وكان السيد العربي هو الإمام الراتب، وقد استرعى نظري اكتظاظ الزاوية بالمصلين، ثم خرجنا من الزاوية وفي يد السيد العربي سبحته الغليظة الدرقاوية، يذكر فيها في الشارع في طريقنا إلى الدار، وعليه كساء رقيق أبيض نقي، وعلى رأسه عمامة مكورة تكويرا صناعيا على الطربوش المخزني

الطويل، وتحت الرداء قفطان فوقه فرجيه، وهي الهيأة التي لا تزال سائدة في طبقته إلى ذلك الحين، وقد صرنا نمشي ساكتين، وطرفه إلى الأرض، ولبدة حمراء تحت إبطه، فلما جلسنا إلى مائدة الغداء، التي احتفل لها بأنواع من الأطعمة، افتتحت المحادثة بيننا، وقال: إن الأخ إبراهيم كتب إلى أنك ستمر بي، وأخبر أنك ستحضر في المجلس الذي نستتيب فيه ذلك الملحد الكافر حمادا، ويا سبحان الله، يخرج الميت من الحي! فلو عرف والدنا أنه سيكون حماد هكذا لربما اختار خنقه في مهده حين ما زال صغيرا، فإن أبانا سيدي محمدا رحمه الله كان غيورا على دينه، حتى أنه في الوقت الذي كان فيه أمين الديوانة في طنجة أواخر سلطنة مولاي الحسن، كان لا يقدر أن يفتح عينيه في نصراني متى رآه، ومتى جاء أحدهم وقبل يده، يقوم أبي في الحين فيغسل يده، ويقول كيف ألمس ثوبي ومصحفي أو أي كتاب بيد مست كافرا ثم لم تطهر بالماء؟

وكان رحمه الله يحكي لنا ونحن صغا را أنه رأى يوما مناظرة عجيبة عقدها بعض علماء فاس مع بعض علماء النصارى، فقد ورد أحدهم في أوائل دولة مولاي الحسن، وطلب أن يجتمع بعلماء مسلمين، فاختار له السلطان فلانا وفلانا، وكان يسمي أولئك العلماء، فقال لهم أحدهم: دعوني فأنا ألزمه الحجة، فإن هؤلاء النصارى جهال، وإن وصفهم بالعلم كذب بحت، فلما اجتمعوا بادر ذلك الفقيه فقال لذلك النصراني: إذا اشتريت معزة، فلما أويت بها إلى دارك وقفت إزاءها تقبلها، فإذا بها أرسلت بعرة من تحت ذنبها ففقأت عينك، هل يضمن بائع المعزة عينك؟ فبهت النصراني ولم يجد جوابا، ومن هنا يعرف الإنسان جهل النصارى، وأنهم لا يعلمون إلا أمور الصنائع الدنيوية، (**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**) [الروم :7]، ويا لشقاوة من اغتر بمعلوماتهم، وأفنى في تعلمها عمره، فإنه بلا ريب لا يكون إلا مثل ذلك الأخ التعس حماد الذي لا يريد إلا الدنيا وزخرفها.

فتركت الشيخ حتى أتم ما يقول فقلت له: هل يسامحني سيدي أن أذاكره في بعض ما قال؟

فقال: لا بأس، إنما هذا حديث دنيوي، وليس بمذاكرة أهل القلوب، فقلت: إن المسلم لا يتم إسلامه ولا يكمل إيمانه إلا إذا تخلق بأخلاق القرآن وبأخلاق السلف، فبحقك هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يعامل كفار عصره مثل المعاملة التي حكيتها عن المرحوم والدكم؟ أوليس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوسع أخلاقه لهم؟ فقد لاقى وفد بني تميم الأجلاف الذين ينادونه من وراء الحجرات بغير هذه الأخلاق، بل جاء في القرآن أنه لا بأس بموادة من لا يقاتلون في الدين، ولا أخرجوهم من ديارهم، ولم ينه عن برهم وعن الإقساط إليهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعاملهم، فقد مات ودرعه مرهونة عند يهودي، وأجاز الشارع التزوج من كتابية، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه صاحب مرة يهوديا في الطريق، فلما أراد أن يفارقه ودعه وداعا جميلا، فقيل له في ذلك، فقال: إن الإنسان ليسأل عن صحبة ساعة - أو كما قال - وكان له جار يهودي لا ينساه في حق الجوار، واليهود والنصارى لا فرق في معاملتهم بذلك الشرط المتقدم، والإسلام دين العدل ودين الأخلاق ودين المسامحة، فإن فتحت كل الأقطار التي استقر فيها الإسلام بالسيف فإن قلوب أهلها إنما فتحت بالعدل، بل هناك أقطار ما جال فيها سيف قسط، كالصين وجاوة وأندونيسية وبعض نواح من إفريقية، قد صارت اليوم دار إسلام.

وأما تلك المناظرة بين ذلك العالم النصراني مع أولئك العلماء المسلمين، فيجب لو أمكن أن تمحى من التاريخ، حتى لا تبقى سبة خالدة في جانب علماء قطرنا هذا، فإنها تدل على جهلهم أكثر مما تدل على جهل ذلك الأجنبي،

عند كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، والواجب على كل مسلم مخالقة غيره مع الثبات على مبدئه ودينه، فما أحل الإسلام لنا طعام غيرنا من أهل الكتاب ولا أباح لنا تزوج نسائهم إلا لهذه العلة.

فقال السيد العربي:

أراك قد أسرعت إلى المناظرة منذ الآن، فقد سمعت منك ما كنت أنتظر أن أسمعه من حماد، فإنه لو كان يعرف ما تعرف لكان حاجني به يوم كنت أرده عن التزوج بتلك النصرانية، يا هذا: إن لكل نازلة زمانا ومكانا، فلو كان هناك مسلم ثابت الإيمان، وكانت هناك كتابية لا تتغلب عليه فتفسد عليه دينه وأخلاقه وأولاده بعد، لما كان في الإسلام مانع من تزوج غير المسلمة، ولكن تكفينا قضية حماد اليوم في أن ذلك لا يجوز مؤقتا، سدا منيعا للذريعة.

فأردت أن أسلس القياد للسيد العربي، فوافقته فيما قاله كله، ولم أناقشه فيه، لأن معه مسحة من الحق، والحق أحق أن يتبع، فقلت له: إن ما قلته هو عين الحق اليوم، ولكن يجب علينا أن نربي بناتنا حتى يتهذبن ويتعلمن، فيمكن لأولادنا الذين تعلموا التعليم الجديد، أن يرضوا بالاقتران بهن، وإلا فلا يمكن أن يتغير هذا الذي نتشكى منه إلا بذلك، كما أنه يجب علينا أن نعلم أيضا أولادنا تعليما دينيا زيادة على التعليم الجديد، ليكونوا ثابتين فلا يخاف عليهم لو تزوجوا بغير مسلمة.

فلما قلت هذا، أراد صاحبي أن يسايرني كما سايرته آنفا، فقال:

نعم هذا هو الواجب على الأمة كلها، ولكن أين الأمة؟ فرددت صداه، فقلت نعم أين الأمة؟

هذا موجز ما دار حول مائدة الغداء، ثم أخذنا مضاجعنا إلى العصر، فأديناها أيضا في الزاوية، ثم طلبت منه المصاحبة إلى زيارة ما يزار في المدينة، وكنت أقصد المستشفيات والمدارس والأندية العامة، فإذا به فهم من كلامي زيارة الصالحين، فدار بي على أضرحة انتهينا منها بضريح ابن عاشر، فصرت أحكي لصاحبي ما أعرفه من ترجمتهم، وأردت فيما بيني وبين نفسي التنكيت عليه وعلى أهل طبقته، حين لا يأبهون بالحديث ولا بدراسته، فقلت له:

أتدري أن هذا الشيخ ابن عاشر كان ينسخ كثيرا كتاب العمدة ويقتات من ثمنه؟ قال: هل العمدة كتاب فقه أو كتاب وعظ؟ فإنني لم أسمعه قط، إلا أن تقصد كتابا رأيته مرة عند أخي إبراهيم الذي جن بكتب اللهو والهزء واللعب والبطالة التي يسمونها بكتب الأدب، فقد قرأت على ظهر الكتاب أنه عمدة ابن رشيق، فقلت له: لا بل إنه كتاب في أحاديث الأحكام جمعها المقدسي من الصحيحين، وقد شرحه أناس، من بينهم عالم فاسي، فقال: لم أسمع به قط، فقلت له وقد رثيت لخجله: يكفي عن الكتاب البخاري ومسلم، فقال: نعم، وقد أخذناهما عن أشياخنا رحمهم الله ورضي عنهم.

دخلنا في العشية في موضوع حماد، وكيف يمكن أن يستنقذ قبل أن يغلق رهنه، ويبوء بكفره، فتأسف السيد العربي على عدم تلك القوة التي كانت تقف دائما في عصور الإسلام المزدهرة أمام ارتداد المسلم عن دينه.

فقلت له: إن القوة أن أجدت شيئا في عصر من العصور فإنما تجدي في ضغط الظاهر فقط، والإسلام لا يهمه الظاهر، فإن الله لا ينظر إلا لما تعقد عليه القلوب، وتطوى عليه الصدور، فالذي يجول الإلحاد في قلبه يصير

أمام القوة زنديقا: مسلما في ظاهره ملحدا في باطنه، وهذا هو السر حتى لا تتأسس دعوة الإسلام على القوة، بل على الإقناع بالحجج والبراهين المستحوذة على الأفئدة، فلا إكراه في الدين، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99]؛ أو لا ترى أن الإسلام إذا ثارت بينه وبين قوم حرب حتى يغلبهم فإنه يذرهم وما هم عليه، فلا يتجاوز أن يدعو إلى ما فيه من الأفكار السامية والأخلاق الفاضلة بالتي هي أحسن، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: 37-36].

وهذا العصر الذي نحن فيه آخر تلك العصور المتقدمة، فقد أطلقت فيه الحرية، وصار الإنسان يعتنق كل ما شاء، وزخرت فيه دواعي الإلحاد والتهتك، وانطوى فيه ما كنت تعرفه في تلك العصور، فلم يبق في أيدي أصحاب الغيرة إلا التبشير والإنذار، وتتبع أساليب القرآن في ذلك، وإرخاء العنان في المحاورة والمناظرة، ومحاولة أسر القلوب بما يظهر في كل وقت من أسرار الطبيعة ومن المكتشفات والمخترعات الدالة على وجود الله تعالى، وعلى كونه واحدا في تصرفاته كلها.

أ فيمكن لذي عقل وحصافة، أن يطلع على ما وصلت إليه اليوم علوم المادة من تشابه المخلوقات في أصل تكونها، وأنها لا تختلف فيه، أمثال القمح والذرة والشعير إلا بزيادة مقدار من مقادير ما خلقت منه أو نقصانه، ثم يتوقف عن الاعتقاد بوجود خالق عالم، له أتم القدرة، لا يعزب عنه مثقال ذرة؟

أفلا يدل علم الكيمياء الحديث دلالة واضحة على وجود الله، كما تدل عليه جميع المحسوسات في السماوات والأرض؟ وعلى اعتبار هذه الأساليب

تأسست دعوة القرآن، لا على أساليب فلاسفة اليونان، فان أردنا اليوم أن ننجح في هذا العصر الذي نهضت فيه علوم المادة فلا مناص لنا من مراجعة أساليب القرآن.

وأما إذا زدنا ما وصل إليه علماء الأرواح من اكتشافهم ما وراء المادة، فإن الدين يكون أقرب إلى العقول السليمة، وإنما ينقص دين الإسلام دعاة ذوو حصافة ولباقة وثبات وسلامة طوية، فليس زمان يقرب فيه الإسلام إلى الناس كمثل هذا العصر.

يجب أن يدعى أخوك حماد بالتي هي أحسن، وأن يرخى له العنان، ويطرق باب عقله من جهة شعوره الذي لا بد أن يكون حيا، ومن جهة علمه العصري الذي تعلمه اليوم، فليس كل ما تعلمه من عند الغربيين ضلالا كما يؤتى لك، فاتكل في أمره على الله أولا، ثم قابله بالحنو وأدب الخطاب، ثم كل إلى أخيك إبراهيم ما وراء ذلك مما يتعلق بمعارفه الغربية، فإن احتيج إلى حديث أو آية مستمدتين من مسلك العقول، أو مما يمس العاطفة والشعور، فسق إليه ما عندك، وإن توقفت المحاجة على المعارف الغربية فاندب إبراهيم، فقد أمرنا أن نندب إلى كل مهم أهل بلواه، ولا إخالك -إن اتبعت هذه الطريقة- إلا ناجحا فيما تراود عليه أخاك، فإن سبقت له الهداية من الله في أزله فإنه سيكون من المهتدين، وإلا فقد أديت ما عليك بينك وبين ربك، (**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ.**) [القصص: 56.] (**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**) [الكهف: 29].

فأصاخ كأنه يدرك كل ما أرمي إليه ويسلمه.

ثم انفصلنا على اتباع هذا الأسلوب عند صلاة العشاء، فقد قال: إنني سأشتغل بأورادي الآن، ولا خير في حديث ما بعد العشاء للنهي عن ذلك، ثم أغلق بابه دوني. فالتفت إلى كتب مستديرة بالمكان الذي نجلس فيه، أتتبعها فإذا بها كلها صوفية أو حديثيه أو تفسيرية، فمما هناك شرح رائية الشريشي في كيفية التربية عند القوم، وشرح المباحث الأصلية لابن عجيبة، وشرح تائية السلوك واليواقيت والجواهر للشعراني، والعهود المحمدية والطبقات وأخلاق المتبولي له، والفتوحات المكية والإحياء للغزالي، ورسائل ابن عباد، ورسائل مولاي العربي الدرقاوي، والخازن على القرآن، والجامع الصغير للسيوطي، فأعجبني من بينها أخلاق المتبولي لقلته في الأسواق، ولكونه لا يزال مخطوطا، ففيه كنت أطالع حتى دهمني النوم.

وفي السحر قبل الفجر بنحو ساعتين، أيقظني رب مثواي فتوضأت، وتوجهنا إلى الزاوية، فانتبذ في ناحية يتنفل بالقرآن، حتى أطل الفجر فاستقبل، فسمعته يردد ما بين السر والجهر: «الله» ويمده قدر نفسه، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر، ولما قرئ الحزب بقي في مكانه مستقبلا ساكنا لا تتحرك؟ منه شعرة، حتى حلت النافلة فصلى الضحى، ثم التفت إلي، وقد غرقت في النعاس، فكأنه يريد أن يؤنبني على نومي إذ ذاك، إلا أنه أمسك حياء، وقد رأيت بضعة فقراء فعلوا فعله فدخلوا الزاوية سحرا، ثم لم يفارقوها إلا في هذا الوقت، فقلت في نفسي: هنيئا لهؤلاء القوم ما استعجلوه من لذة الآخرة، يستمتعون بها في الدنيا، والناس كلهم سواهم في حياة تعسة لا يرى فيها قبس من نور، ثم لما أقبل إلى رب البيت لاحظت على وجهه نورا وطهارة، فعلمت أن أصلهما من قيام الليل، فإن ذلك مما ينضر الوجوه.

ثم ودعت السيد العربي وهو عظيم في عيني، رغم ما أعلمه منه من جهل كثيف بهذا العصر، وطلبت منه الدعاء الصالح، لأنه من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

[3]

**في ضيافة حماد:**

كنت كتبت إليه من مراكش هذه الرسالة:

مراكش 23 - 4 1340-هـ

عزيزي الدكتور النابغة السيد حماد.

إنني في طريقي إلى فاس، وسألم بجنابكم يوم الخميس 28 ربيع الثاني، فأرجو أن أجدكم في انتظاري هناك، وإلى اللقاء.

وصلت دار الدبيبغ حيث يقطن الدكتور، فدخلت الخادم ببطاقتي، فخرج على الهيأة التي كنت أعرفه بها من قبل، سراويل طويلة، وصدرة مفتوحة الأزرار، قصيرة الكمين، عاري الأعضاد إلى المنكبين، فصافحني بيد، وفي اليد الأخرى لفافة التدخين، ثم رد اللفافة إلى فيه بعد ما تبادلنا التحية، فتقدمني إلى بهو مؤثث تأثيثا غريبا، فيه كراس مصفوفة حول منضدة، على الجدران معلقات من الأسلحة البلدية، إلى تصاوير مختلفة، فقدم إلي مقعدا وجلس على آخر، فلم نمكث إلا دقيقتين حتى افعوْعَم جو البهو على اتساعه بالدخان من فيه، فإنه لا ينقطع ما بين يديه وشفتيه، ثم إنه غمز زرا فأتت الخادم فقدمت إلي جاما فيه القهوة، وإليه جاما آخر تدل نكهته على ما فيه، فأتى كل واحد منا على ما في جامه، ثم لم يلبث أن انحلت عقدة لسانه بتأثير ما تناوله، فطفق يثر على بآخر الأخبار اليومية المنشورة بعد الزوال من لندن وباريس ونيويورك، ويقول فاز فلان في السباق في باريز وانتخب اللورد فلان في مجلس اللوردات لرياسة اللجنة التي تبحث في القضية الهندية، وانتحر المليونير فلان في نيويورك، فتركته يتخطى أخبار السباقات والانتحارات إلى

ما يتعلق بنجوم السينما، وأنا أبسم له أخالقه، وأظهر إليه أن كل ما هو فيه مستحلى عندي مقبول لدي، ثم كأنه شعر بأن المكان ضاق فيه صدري فاستأذن في جولة خارج الدار، فخرجنا وفي يده محجنه الذي يشير به يمينا وشمالا، وسار وهو يتأود، وكلما مرت آنسة أجنبية يشير إليها من بعيد وتشير إليه، وربما وقف معها تريه صورة من جريدة أو تستفسره عن أخبار عالمية، فكنت أنتحي جانبا حين يواقف إحداهن حتى يفرغا من الحديث، ثم مررنا أمام دار السينما فشرع يشير بمحجنه إلى صور معلقة في الجدار يبين لي أسماء أشخاصها، فلم نزل كذلك نحو ساعة، ثم جلسنا في مقهى، فسأل الخادم عما نشرب، فذكرت أنا له شراب الرمان - وكنت أتشهاه دائما - وذكر له شرابا آخر لا أعرفه، ثم شرع يمدح جو دار الدبيبغ ويذم بكل ما أوتي من ذلاقة لسان جو المدينة ويقول: إنها طافحة بالمكروبات، ولا أدري كيف تسمح إدارة الصحة بترك الناس يسكنونها، فقلت له: إن مثل ذلك الجو لا يضر من يألفه، وخصوصا من تربى فيه من صغره، فقال: إلى متى نمدح أمثال هذه الأطلال، ونسميها بالمدن؟

ثم حملق إلي حملقة ارتعت منها، وقال: لو كانت ذات يدي تتسع لسكنى أوربة لما رأيتني بعد هنا، فإن الحياة هنا لا يطيقها مثلي ولا يستطيعها، ولكن إن نجح هذا العمل الذي افتتحته أخيرا فإنني سأطلق هذه البلاد إلى بلاد المدينة الوهاجة، حيث يتربى أولادي تربية حرة، وأصرح أنا كذلك بأفكاري حيث لا أجد إزائي أخا يضايقني، ولا جارا ينظر إلي شزرا، فإنني هنا غريب، فلولا الأجانب لما وجدت لي معاشرا، ولا اتخذت مسامرا، فأما هؤلاء الذين ولدت من أحدهم فإنهم ينبذونني وأنبذهم، وينفرون مني وأنفر منهم، أو ليس من العجيب الغريب الذي يستوقف الأنظار ويحير الأفكار أنهم صاروا

يؤاخذونني حتى في الحرية الشخصية، فيحبون أن أسحب أمثالهم ذيول ما ألبس، فلا أجول إلا في الفضفاض المتدلي الأكمام، ولا يزال ما على رأسي مكوما بما يسمونه العمامة، وما هي إلا عش غراب كبير إن تراءى للأعين من بين أغصان الأشجار؟ فما هذه الهمجية الواسعة النطاق؟ أفيعيش هؤلاء في هذا القرن العشرين حقا؟ أفوصلت هؤلاء ما أعلنته ثورة 1789 م من حقوق الإنسان من الحرية والإخاء والمساواة؟ ولكن كيف يعرف ذلك من يجهل وقوع ذلك الحادث العظيم يوم كان نسف الباستيل أساس الحرية والإخاء والمساواة في العالم؟ يوم قام ميرابو يعلن على العالم ما يعلن، فإن جهلوا ما وقع إذ ذاك في هذا العالم القديم الذي تحت آنافهم فكيف يدرون ما قام به واشنطن في العالم الجديد في ذلك العهد؟

فتركت الدكتور يتفيهق بلسان ذرب بكل ما يضمره لأمته من سوء، وبوده أن تأتي دولة غربية فتحملها بالقوة على نبذ كل ما يسميه غباوة من الأديان والأخلاق الفاضلة، ولكن الدول الغربية أدهى وأعقل من صاحبنا، فإن كل دولة منها تمكنت من مثل هذه الأمة تحاول أن تبقى على ما وجدته متأصلا فيها من دين وخلق وجمود، فلا ترتاع إلا يوم ترى سوى ذلك لما لها في ذلك من مئارب أخرى.

وعند غروب الشمس تملصت بلطف من صاحبي حتى أديت شعيرة ديني، فلحقت به وهو لا يزال يتسكع في الشارع الكبير في دار الدبيبع، فقال: إن وقت العشاء قد حان، فهلم لتقضي منه قبل أن يفتح الفصل الأول من رواية تمثيلية عالية المنزع، يتخللها رقص آنسة خلابة طائرة الصيت في العالم، وهي نجمة جديدة كسفت كل نجوم السينما المعروفة، فأسرع أسرع قبل

أن تفوتنا لحظة من ذلك، فنخسر أسعد ساعة من أعمارنا ثم لا نجد لها عوضا، فمدت المائدة المحتوية على لحم أرنب ونوع خاص من الحوت بطهي أوربي، فمد إلى الشوكة والملعقة، فأقبلت كما أقبل على الطعام، وهو يتناول أثناء الأكل ما في كأس كبير من الأشربة التي يألفها، وقد عرضها علي فاخترت عليها الماء الصرف، فصار أثناء الأكل يذم المآكل الأهلية، ويسخر من الطواجين والبساطيل، حتى وصل الكسكسو فصب عليه جام غضبه، فقال: إن كل الطعام الأهلي لا أكاد أشمه إلا أحسست بنفسي أختنق، ومتى تذكرت أوساخ النساء الأهليات الطاهيات يثور ما في بطني حتى أوشك أن ألقي كل ما في أمعائي، فيا للهمجية والأوساخ وبلادة العقول والمكروبات المتراكمة فلا أود إلا أن أنسف في لحظة واحدة كل هذه الهمجية بديناميت واحدة حتى يطهر الوجود منها بالكلية.

على هذا الوتر صار صاحبي يضرب بكل ما في عزمه من قوة وما في لسانه من فصاحة، فأوسعت له صدري، وتركته حتى تأتي ساعة مناظرته، لأنني أوقن أنه متى صلح قلبه بالدين الإسلامي تزول بسرعة عنه كل هذه الظواهر التي ملكت عليه مشاعره، فكل من كفر بدين أمة وامتلأ قلبه بجعلها المثل الأعلى في التأخر والهمجية، فإنه لا يمكن أن يرضى عنها بعد إلا متى رضي عن دينها، وقد أدركت أن الدعاية التي وصلت بأمثال هؤلاء الأغمار إلى هذه الحالة التي تحملهم على كراهة أمتهم وكل ما فيها، ومحبة غيرها من الأمم الأجنبية وكل ما إليها، ما أمكن لها أن تجد معششا في صدورهم إلا بعد أن أزالت عنها دين تلك الأمة إزالة تامة، فأمكن لها حينئذ بسهولة أن تبذر بذورها كما تريد، فنجحت كما نرى غاية النجاح، وكذلك الدواء يوضع كما وضع ذلك الداء، فليحاول في أمثال هؤلاء تفهيمهم الإسلام أولا، ثم إذا فهموه فما أسهل أن

يفهموا كل ما وراءه، فإن الغشاوة سرعان ما تزول عن أبصارهم، فيوقنون أن كل أمة أمة لا تخلو - وإن بلغت في المدنية ما بلغت، أو في التأخر والانحطاط ما بلغت - من الحسن والقبيح ومن أناس يمثلون كل الطبقات في الرقي وفي الإسفاف، ولهذا تركت صاحبنا الآن لضيق الوقت عن مفاتحته في هذا الباب...

ماذا رأينا في دار التمثيل؟ رأينا أدوارا كلها خلاعة صريحة، وتهتك يندى به جبين الفضيلة، وأما تلك الراقصة التي وصفها صاحبنا المسكين بما وصفها به فإنها امرأة نصف، ألحت على ما تبقى في أطرافها من روعة جمال بأصباغ مختلفة حتى أصبحت كما قال الشاعر:

تعــددت ألوانهــا كأنها قــوس قــزح

فلم تزل في تلو وانعطاف، ويداها تلعبان بأذيال ثوبها حتى كاد يظهر منها ما اجتمعت الأديان وأصحاب الفضيلة والأخلاق على وجوب صونه، ولم يظهر لي أنا منها ما يظهر لأمثال صاحبي الذين يكادون يخرجون من جلودهم لما صارت تمثل أدوارها على المسرح، اللهم إلا صوتها الرخيم فإنني أعذرهم إن تأثروا بأناشيده، فكم مرة سمعت صاحبي بعد أن ملت كفاه من التصفيق، تفلت منه على رغم إسراره صيحة بقوله (الله) فعجبت كم بين الأخوين، فأخوه الصوفي كان عهدي به أمس يقولها في الزاوية مستقبل القبلة، وهذا يقولها في دار الخلاعة وهو مستقبل هذه الرقطاء التي تتلون لأمثاله كما تتلون في الغول.

أبطأنا هناك حتى تجاوزنا نصف الليل بكثير، ثم جاء معي صاحبي حتى هيأ مضجعي، فقال: إنه لا يزال لي أرب في الخارج، فغاب ما شاء الله حتى بقي للفجر نحو ساعتين إذا به مع امرأة تتسلل به خفية وهو سكران، ولا

يزال يلفظ ببعض كلمات من أغنية رددتها الممثلة كثيرا على المسرح، ولا يكاد يفصح بما يقول، ورفيقته تضع يدها على فيه، كأنها تعرف أنني في الدار فلا تريد أن أستيقظ لأراه على تلك الحالة السمجة، ولكنني بت سهران أرقا، أفكر في أمثال هؤلاء الشبان الذين حرمتهم أمتهم، وفقدت جهودهم في كل ميدان من ميادين حيوياتها، وتناومت لما أحسست بتلك المرأة تعتل السكران برفق، وتهدئه ليخفض من صوته المتلعثم ببقايا من تلك الأغنية، ثم لما مست زر الكهرباء في الممر، وقادته أمامي، ألقيت بصري على المرأة فإذا بها عين الراقصة، وقد راعني تغير وجهها عما كان عليه آنفا، فأدركت أن ما تراءى لي منها من بقية جمال إنما هو من آثار المسحوقات المذرورة على أطراف محياها، ثم بعد أن أضجعته وألقت عليه الغطاء بمعاونة الخادم التي جاءت أخيرا، غادرت المكان، فقلت في نفسي: في هذا الوقت نفسه استيقظ أخوه لمناجاة ربه سالما معافى، وها أنذا أرى أخاه هذا لم يرجع إلى فراشه إلا في الوقت نفسه، فيا للفرق العظيم بين الأخوين!

كنت هيأت لي وضوءا إزائي من أمس فأديت فرض ربي، ثم غلبني النعاس غلبة شديدة، فلم أستيقظ حتى متع النهار كثيرا، فوجدت رب المثوى قد استفاق قبلي، فحياني من إزاء فراشه وحييته، ثم أقبل على الشغل الشاغل الذي يشتغل به أمثاله في كل صباح، فمشط وفرته بعد ما غسلها غسلا جيدا، ثم أقبل عليها بالمسح الكثير، ثم صب عليها قارورة تامة من عطر ثم وقف أمام المرآة يمر الموسى على ذقنه وعلى خديه، ثم ذر على وجهه ذرورا أبيض، ثم استبدل لباسه، وحين نزع حذاءه اندفعت إلى أنفي رائحة خبيثة كأنما انفتح المستراح تحت أنفي، ولكنه هو لم يبال بذلك ولا استرعى همته، ولعله من فريق من الذين لا يتعهدون كثيرا أسافلهم بالنظافة وبالغسل، كما يفعله

غالب شبان اليهود المتفرنجين، فقد حدثني طبيب أوربي في السويرة أنه تعجب كثيرا من نظافة المسلمين حتى العملة منهم، ومن وساخة اليهود المتفرنجين، قال: إنني كلما تعرى أمامي يهودي أشم من أوساخ أواسطه وأسافله ما لا أكاد أملك نفسي معه من الغثيان، وأما المسلمون فلا أجد ذلك منهم، حتى إذا تعرى أمامي أحد العملة منهم وهو وسخ في مظاهره وفي أطرافه، أجد مغابن بدنه وأواسطه وأسافله نقية، فلما بحثت علمت أن السبب هو الوضوء الذي يتعاطاه المسلم مرات في اليوم، والغسل الذي ربما لا يتركه أحدهم أياما متوالية.

وبعد أن فرغ صاحبي من شغله الشاغل، جلس أمامي جلسة الدكاترة، فاستدعى بالفطور إلا أنه تناول جرعات من أدوية مختلفة قبل الإفطار.

أتممنا تناول الإفطار على نحو العاشرة فقال رب المثوى: إنني سأذهب الآن لمباشرة عملي، فقلت له: ومتى تخلي لي ساعة أفاوضك فيها؟ فقال: بعد الغداء، فقلت: إن شاء الله، فقال متهكما: ما معنى إن شاء الله؟ فإن الأمر لي، فقد شئت، والسلام، فلم أجبه إلا ببسمة فقط، ثم خرجنا، فصاحبته حتى وصل معمله، فذهبت إلى المدينة، فإذا بي ألقى أخاه سعيدا، فقلت في نفسي: إنها لمصادفة حسنة، فذكرت له أنني سأرافقه العشية لأبيت عنده في تازة، فرحب وواعدني الملاقاة على الساعة الرابعة في العشية في مكان عيناه.

وصلت في وقت الغداء إلى باب دار حماد، فراعني خروج طبيب منها فحييته وحياني، فقال لي: إنه لا بأس عند حماد، فإن الضربة لم تصب مقاتله، وإنما هناك أثر لكمة شديدة غشي عليه بها قليلا، وها هو ذا أفاق الآن من غشيته، وقد ألزمته ألا يزايل فراشه إلا بعد الثانية، فحين رآني مشدوها مما

يقول، أدرك أنني لم أكن أنتظر هذا الخبر الذي فجأني به: فقال كأنك لم تسمع بعد بما وقع لحماد؟ فقلت له: لا، إلا أنني يهمني أن أعلم جلية الخبر كما هي، فقال: منذ ساعة استدعيت بالهاتف على العجلة فوجدت حمادا أمام معمله ساقطا على وجهه مغشيا عليه، ومحافظ الأمن واقف على رأسه، فقيل لي: إنه سقط بسبب مخاصمة مع بعض الأشقياء الأقوياء من الذين لا يزالون أرصاد الحانات، وأزيار الغواني، فقد كانا تشاجرا أمس من جراء راقصة تنافسا في الاستيلاء عليها إثر انقضاء فصول التمثيل، ثم سعد بها حماد، فتركه الشقي إلى أن فتح معمله بعد الساعة العاشرة اليوم فنهد إليه، فحاول حماد أن يتملص من مشاغبته، ولكن الآخر يلح عليه في المبارزة على العادة الأوروبية، فأبى حماد كل الإباء، لأنك لا تجهل أن حمادا ليس من رجال ذلك الميدان، فلما لم يجد الشقي بابا إلى شفاء غليله من صاحبه صمد عليه بلكماته، فحاول حماد أن يجيبه بمثلها إلا أنه ضعيف النكاية، فأصابته من الشقي لكمة شديدة لو أصابت أحد مقاتله لقضت عليه، إلا أنه سلم بأعجوبة، فغشى عليه، هذا ما وقع له، وهو الآن في نوم يسترجع به قوته، ولذلك أوصيت على أن لا يوقظه أحد.

فأحسست بأن الرجل أوتي من قوله آنفا حين نسب المشيئة لنفسه لا لخالقه، فانقدح لي أن أتخذ الحادثة مفتاحا لما أريد أن أفاتحه فيه، فقلت: وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وكم نقمة في طيها نعمة، وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه، إن ربي لطيف لما يشاء.

[4]

انتظرته حتى استفاق عند الساعة الثانية، فدخلت إلى غرفته، فهنأته بالسلامة، وقلت له: كيف تجدك؟

فقال: أحسست الآن كأن قوتي تراجعت إلي، وها أنذا سأقوم. فقام ومشى ما شاء الله في الغرفة، فقال: ها أنذا أصح من الحصان، هيا بنا إلى الغذاء. فقلت له ونحن نفتتح الغذاء: كنت ءانفا قلت لي كلمة على سبيل التهكم: (ما معنى إن شاء الله؟ فالأمر لي فقد شئت والسلام)، ولم أجبك إذ ذاك، إلا أني الآن وجدت في الحادثة جوابا، أرأيت مقدار مشيئتك؟ وإلى أين مداها، أو لا تعترف معي بضعف قدرة الإنسان، وأنه لا يعدو أن يكون كريشة تتطاير بها الريح عن يمين وعن شمال؟

فقال: هذا ما يقوله الحكيم الغربي: إن الإنسان أمام الطبيعة كلاشيء ما لم يقوه الحب الصحيح. فقلت له: إن قول حكيمك الغربي إنما بنى على أساس الغرام وعلى أساس الخيال، فدعنا الآن من الغرام والخيال، فنحن الآن إزاء حقيقة عظيمة نبحث فيها بكل حرية، محكمين العقل الذي يتمتع به الإنسان دون كل ما حواليه في السماء والأرض، فإن هذه فرصة أوجدتها لنا هذه الحادثة ينبغي أن لا نفلتها، ألم يقل أوستن فلبس: (إن التيقظ في مراقبة الفرص والحذق والجرأة في اقتناصها عند سنوحها، والقوة والثبات في الاستفادة منها إلى أقصى حد ممكن، هي المزايا الجوهرية التي تقود إلى النجاح). أو ليس ما يقوله هذا الحكيم الغربي صحيحا؟ فلماذا نفلت هذه الفرصة؟ فلنحذق ولنجرؤ في اقتناصها، ولنقو ولنثبت حتى نستفيد منها إلى أقصى حد ممكن.

فقال: أجل، إلا أن البحث في هذا لا يجدي نقيرا، ولا يغني قطميرا، فأمثال هذه الأبحاث لا يشغل بها إلا أهل البطالة، لأنها لا تكشف لنا عن قطار جديد ينسى هذا القطار المعتاد، ولا تطير بنا ثانيا إلى حيث لا يطير المنطاد، فما البحث المجدي إلا ما كان في الماديات التي ازدهرت بها المدنية اليوم، وطويت الشقة فيها فقرب البعيد القصي.

فقلت له: هل الأبحاث التي كان يشتغل بها فلاسفة اليونان أمس، ويملأ بها أوقاتهم فلاسفة اليوم، مما لا يجدي نفعا في نظرك؟ وهل تظن البحث في الماديات انبعث من غير بحوث الفلاسفة؟ فإن كانت عقليتك أسفت إلى هذا الدرك فلتبك على عقلك البواكي.

فقال: ليس مقصودي ما يؤدي إلى هذه الغاية، وإنما مقصودي أنني لا أحب التدقيق في أبحاث لا تعود علي شخصيا بالمنفعة، وأية منفعة لي في التدقيق في هذا البحث؟

فقلت: كيف تنكر أن يعود عليك التدقيق في هذا البحث بالمنفعة الشخصية؟ فلا ريب أنك ترى نفسك مستقيما، وأي شاب مثلك ينفي الاستقامة عن نفسه؟

فقال: نعم إني مستقيم ككل رجل جنتلمان.

فقلت: إن الاستقامة صنو التدقيق، فهذا الحكيم الغربي س. سيمونس يقول: ( التدقيق هو الأخ المتايم للاستقامة، فإن كنت ترى مشقة في هذا البحث العقلي فقد نفضت يدك من عبقرية لا شك أنك تراها لنفسك.)

فقال: نعم، إنني لا أرى لي عبقرية، وإن كنت لا أصرح بذلك في المجتمعات، ولو لقيت بيئة تقدرني قدري لكنت قبلة النظار، ولو اتبعتني أمتي لأخرجتها من الهمجية.

فقلت: فاسمع إذن ما قال كارليل: ( إن العبقرية هي الحذاقة الغير المحدودة في تحمل المشاق)، أترى نفسك في هذا المقام ثم لا تقدر أن تستغل فرصة سانحة فتبحث بحثا قد يسير بك إلى الأمام أسرع مما يسير القطار، وربما ترقى بك إلى أفق لا يطير إليه المنطاد؟ أتسقط بسبب حادثة ممضة، ثم لا تجد منك شجاعة إلى البحث حولها؟ أتقول كلمة إزاء كلمة أخرى وتتخلف كلمتك، ثم لا تقدر أن تقف هنيهة حتى تمعن في سبب تخلفها؟ ما هكذا يظن بك أيها الدكتور العبقري المستقيم. فقال: ها أنذا سأتنازل إسعافا لك على هذا البحث ولكن اطو عني ما أرضعته من تعاليم بيئتك، فإنني لا أحتج إلا بالعقل ولا أقبل منك إلا ذاك.

فقلت: لك كل هذا، فخذ علي ذاك يدي في كل بحث تبحثه معي من اليوم، وقد كنت صرحت لك بذلك ءانفا في مبتدإ قتراحي عليك هذا البحث، أو نسيت أنني قلت لك: نبحث بكل حرية، محكمين العقل الذي يتمتع به الإنسان، دون كل ما حواليه في السماء والأرض؟

فقال: أتنكر أنني صنعت الأشياء التي أصنعها وأني آتي ما آتي وأترك ما أترك عن مشيئة مني؟

فقلت: لا أنكر ذلك، إنما أنكر شيئين من كلامك، أولهما: أنك قصدت نفي تلك المشيئة أيضا عن قوة يحس بها كل عاقل تسير معه الأمور، وقد تتخلف

عنه تلك القوة فلا يستطيع حين تخلفها عنه صنع أي شيء، وثانيهما أنني أنكر أنك تفعل كل شيء هممت بفعله، فقد عزمت اليوم على ما عزمت عليه وقت الغداء فإذا بالغداء وبما نويته قد تخلفا على رغمك، فلماذا يقول العاقل حين يسمع ما قلته من نسبة المشيئة إليك وحدك، وما تظاهرت به من أن كل ما قلته سيتم بالضبط؟ إلا أنك لا تقول بتلك القوة الخفية التي يحس بها كل عاقل.

فقال: إن كنت تقصد ما تسميه الأديان (الله) فإنني لا أومن به، وإن كنت تعني قوة الطبيعة، ككل علماني يؤمن بما يحس به، فإنني أقول بها قولا ثابتا، فما أجل الطبيعة وما أعظم قوتها! فقلت له: إذن سلمت أن تلك القوة الخفية موجودة، وأعلنت أنك تحس بها.

فقال: نعم إنك لو كنت قلت ءانفا، (إن شاءت تلك القوة) لما رددت عليك، وإنما رددت عليك لأنك عبرت بعبارة يتداولها الخرافيون أصحاب الغباوة والبلادة ممن ينقادون إلى المشعوذين من أهل الأديان.

فقلت له: ما دمت تسلم بتأثير تلك القوة، فأحب منك أن تخبرني هل تلك القوة التي جعلت لها تأثيرا لها إرادة وعلم وقدرة أولا؟

فقال: لا، إن الطبيعة صماء، لا توصف بذلك، أولا ترى أن النار قد تسقط في مدينة عامرة فتأتي على الرطب واليابس؟ وأن الأودية قد تسيل سيلانا طافحا فتجرف القرى والمدن بكل ما فيها من الحيوان والمتاع النفيس، فأين موضع التعقل في أمثال هذه الأمور؟ فإنما أفعالها مصادفة، وهذا هو مذهب

المدنية الحادثة، وباعتناق هذا المذهب ترقت وازدهرت وتفوقت هذا التفوق العجيب.

فقلت له: إنني أراك قد طلقت التدقيق الذي يتايم دائما العبقرية والاستقامة، وقد ذكرت أنك من المتصفين بها، فكيف تحكم على تلك القوة بأنها غير عاقلة ولا عالمة ولا آتية أفعالها من حكمة؟ أوليس لك إلمام بعلوم المادة؟ فهل تظن أن علماء المادة يعتنقون هذا المذهب بعدما شاهدوا بعلم الكمياء ما بهرهم حين حللوا أجزاء ما تتركب منه الأشياء، فأدركوا أنه إذا زيد جزء من الأكسجين مثلا في هذا الشيء استحال إلى شيء آخر، وإن زيد فيه مقدار من الآزوت أو من الهدروجين – مثلا - انقلب إلى صفة أخرى، حتى أنهم أعلنوا عدد المواد التي تركبت منها الأشياء التي حللوها، وأنها أربع وتسعون، وأنها كلها تتمشى على أوزان مدققة صحيحة، فهل تلك القوة التي صنعت كل هذا وأتقنته غاية الإتقان، تمشي في أفعالها على المصادفة فقط؟ فإن هذا قياس غير مستقيم. وتأمل أيضا أزهار حديقتك هذه وما في ألوانها من التناسب العجيب، هل ترى فيها للمصادفة العمياء من أثر يشهد لمذهبك هذا؟ ثم إن ترقيت إلى النجوم ومسالكها حيث تندفع اندفاعا دائما بحساب مدقق لا ينخرم معشار عشير ثانية، فهل القوة التي رتبت ذلك غير عالمة ولا قادرة ولا لها إرادة تامة؟ بل ما لنا ولكل هذا، فلينظر أحدنا في نفسه نظر إمعان وليتأمل في حواسه، في بصره، وسمعه، وذوقه، وشمه، وفي الدورة الدموية في شرايينه من أخمص القدم إلى قمة الرأس، بل لينظر في طعامه وفي شرابه، فإنه بعد أن يسيغهما ليست له إرادة فيما تقوم به غدد جسمه ولا في الهضم في معدته ولا في تصفية المهضوم، ولا تفرقة ما تصفى إلى الدم

يسير في كل أجزاء الجسم في أعصاب دقيقة، وإلى ماء حلو يجده الإنسان ريقا في فمه، وإلى ماء مالح تجول به حدقة عينه، وإلى سوائل أخرى تخالف هذه تكون عرقا ومخاطا وما يكون في المرارة، ثم يصير ما تبقى مما لا فائدة فيه إلى حيث يرميه البدن، فمن الذي يتولى كل هذا في كل حيوان؟ ومن الذي نظم هيأة الحيوان تنظيما تاما من بطن أمه صغيرا، ثم لا يزال به على هذه الوتيرة حتى يشتد ويقوى؟ فإن كانت كل هذه الأفعال وأمثالها موجودة على طريق المصادفة فقط من قوة غير عاقلة ولا عالمة ولا فاعلة عن حكمة، فكيف تكون أفعال العقلاء بعد؟

فقال: إن الفلاسفة الغربيين انقسموا فريقين، ففريق يذهب مذهبك، ولكن أداه هذا إلى أن وقع فيما فر منه، فلم ينشب أن التزم ديانة منظمة، جعلوا لها أعمالا جديدة، فإذا بهم وقعوا في مثل ما وقع فيه أصحاب الأديان، وفريق آخر هم العلمانيون ذهبوا المذهب الذي ذكرت ءانفا، ويكرهون البحث كثيرا فيما وراء ما صح عندهم، وأنا منهم.

فقلت: إن العاقل يبني أموره على عقله، ولا يقبل أن يتحكم في عقله آخر، فيكون أسير التقليد، فإنك إن أبيت البحث في الموضوع ما عدوت أن تركت تقليدا تأنف منه بين أهل الأديان القديمة إلى تقليد جديد وقعت منه في مثل ما فررت منه، أوليس الأمر هكذا؟ أنصف وقل الحقيقة، فإنه يجب عليك أن تنتبه كل الانتباه إلى درس الموضوع حق الدراسة، فقد قال شارل دينكس الملك: (إن الانتباه هو المزية النافعة الأمينة الأكيدة في كل درس وكل مسعى، ويمكنني أن أؤكد لكم بتمام الثقة، أن قوتي المخترعة أو التصورية لم تكن لتفيدني كما فعلت، لولا عادة الانتباه اليومي للأمور المبتذلة بكد وصبر).

إذا كان هذا الرجل الغربي يحب الانتباه اليومي للأمور المبتذلة، فكيف بمثل هذا الذي قامت له الفلسفة وقعدت، وحاولت ما حاولت إثبات ما تقوله الأديان أو نسفه من أساسه، فهي مسألة عظيمة جدا، لا يستصغر البحث التام فيها أمثالك من الدكاترة المثقفين العبقريين، وماذا يضيرك لو أمعنت كل الإمعان ودرست الموضوع حق الدرس، حتى تخلص إلى حقيقة تؤسس عليها حياتك المستقبلية، ثم إن تخلص لك بعد الدراسة أن فريق العلمانيين هو الصادق المؤيد مذهبه بالعقل، فإنك لا تزداد بهذا البحث إلا إيقانا لما أنت عليه اليوم، وإن ظهر لك أن الفريق الآخر هو الذي معه الحق، فهل تعدم من الشجاعة ما تعلن به بين الملأ الحق الذي وصلت إليه؟ ولا يضيرك أن يقال عنك إنك تبعت أهل الأديان أخيرا، فقد قيل في الأمثال العربية: لأن تكون ذنبا في الحق أولى من أن تكون رأسا في الباطل، على أنك لم تكن قط - كما صرحت به آنفا - إلا ذنبا مقلدا للعلمانيين).

فقال: واها لك يا فلان، فإنك والله حركت مني ساكنا ولا أدري كيف تأثرت بكل ما تقول، فقد أحسست من باطني باعثا قويا لتتبع دراسة الموضوع دراسة ممعنة، ولكن سأؤجل هذا إلى أن أجد فراغا في الوقت من أعمالي.

فقلت: أتريد أن أعلمك بمنبع ما تأثرت به مني؟ إن هو يا أخي إلا منبع الحق الذي يتفجر لك من بين جنبيك، فاغتنم الوقت، وابدأ في الدراسة من الآن واتبع شكسبير فيما يقول:(انقبض على الدقيقة الحاضرة من مقدم رأسها) وماريا ادجورت إذ تقول: (ما من وقت مثل الزمان الحاضر، وما من وقوة أو عزيمة إلا في الحاضر، فمن لا يتمم منوياته حين لا تزال لديه جديدة نضيرة فلا

أمل له في إتمامها فيما بعد، فإنها لا تلبث أن تتشتت وتضيع بين ضوضاء العالم وازدحامه، أو تغرق في حماة الكسل.)

قال: إنني مدين لهؤلاء الغربيين بمعارفي التي نلت بها الدكتوراه، فلأعلن شكري لهم اليوم باتباع مقالاتهم في اغتنام الحاضر، فسأفتتح دراسة ذلك بإمعان التفكير منذ الآن، لعلني أتملص من التقليد الذي غمزتني به.

فقلت: إذن ادرس وحدك، واجعل نصب عينيك أن تصل إلى عين الحقيقة، هل تلك القوة الخفية التي تدير العالم عاملة بحكمة وعقل وإرادة، أو إنما الأفعال منها تجيء مصادفة فقط؟ فإنك إن توصلت إلى أنها عاملة بحكمة وعقل وإرادة مطلقة من أي ضغط - وأنا لا أرتاب في أنك متوصل إلى ذلك لما أوتيت من الحصافة والفكر الثاقب والعبقرية والاستقامة - يوافق اعتقادك اعتقاد الفلاسفة الغربيين الذين ذكرت أنهم اتخذوا لهم ديانة تشبه الديانات القديمة. والآن أودعك، فقد قاربت الساعة الرابعة التي واعدت فيها أخاك السيد سعيدا على السفر معه، وموعدنا في ضيافة أخيك إبراهيم حيث ينعقد مجمع الأسرة في الزمن القريب.

فقال: إنني كنت أستعد لمناظرة أخي السيد العربي الخرافي ببراهين جمعتها منذ أيام، إلا أنني أحس بها ستنهار إن أداني درسي في ذلك الموضوع إلى ما تنبأت به سلفا.

فقلت: استفرغ جهدك في كل شيء للمناظرة مع أخيك، فربما يتراءى لي أنني متفق معك في أمور لا بد أن تؤدي إليها المناظرة، فأكون في صفك، لا إعانة لك ولا حبا في سواد عيونك، بل إحقاقا للحق، وتشييدا للاعتقاد الصحيح

كما أعتقده، إلا أنني أنبهك - وسامحني أيها الأخ- على مراعاة شيبة أخيك، وأن تبرهن بأن أدبك في سمو عال، فلا تجبهه بما يجرح عاطفته، ولا ما يمس شعوره، وارع له حق الأخوة والتربية السالفة، فإن العظيم لا يكون عظيما حتى يعم كل الناس بأخلاقه، سواء أوداءه وأعداءه، وقد قال فلان الأروبي: (إذا كنت لا أقدر أن أخاطب مزاحمي في الانتخاب بالأدب الذي أخاطب به من انتخبوني، فقد حكمت بأن جهود من هذبوني ذهبت سدى.) ثم ودعته وأنا أرجو أن ينقذه الله مما فيه بفضله ورحمته، وإخالني استعملت ما أطقت الحكمة معه في كل تصرفاتي، فلم أجاذبه في كل ما أراه منه، بل أظهر له الموافقة، حتى إذا وجدت بابا ألج منه إليه فعلت، ثم حرصت على أن أسوق له ما أحتاج إليه من براهين وأدلة عن الغربيين لا الشرقيين، وما فعلت ذلك إلا أتباعا لقول علي بن أبي طالب: حدثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ على أن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

[5]

## في ضيافة سعيد

وصلت على رأس الرابعة إلى المكان الموعود أن نلتقي فيه ثم بقيت انتظر حتى مر نصف ساعة ولما يأت الرجل، فنويت أن أنتظر أكثر، لان أمثال سعيد – وما أكثر أمثاله من الأهالي – لا يضبطون مواعدهم، فالساعة أن زادت أو نقصت يسهل أمرها عندهم، وما أقبحها خلة، ولو كان معي حماد لوجد أيضا مثلا جديدا لانحطاط الأمة، ومصبا آخر يصب فيه ما شاء من لعناته.

وأخيرا عند الخامسة إلا ربع، جاء الرجل، وسلم ثم ذهبنا لطيتنا من غير أن يعتذر لتأخره عن الوقت، كأنه ما فعل إلا المعتاد المألوف، وقبل أن نركب سيارة، جاء شرطي ينظر في السيارة وفي ركابها، والغالب أنه لا يقصد شيئان وإنما يقتل الوقت، ولكن صاحبي صارت أساريره ممتقعة، وأطرق برأسه، كأنه مصدوع، ولم يكد الشرطي ينقلب على عقبيه، حتى رفع رأسه، وأحسست بصرة يخبئها تحت جيبه، فلم أشك أنه (الأفيون)، اشتراه من فاس، وما كان امتقاع لونه أمام الشرطي إلا خوف أن يفتش الناس، فيساق على السجن بسبب ما في الصرة.

انطلق لسانه بسرعة بعد ما أمن من الشرطي، كما يحصل من كل من ليس برابط الجأش، متى زال عنه ما كان يتوجس منه خوفا. فقال:

زرت الآن مولاي إدريس ودفعت في صندوقه زيارة ليحفظني الله حتى أصل إلى داري، فبدا لي منذ الآن أن الحاجة مقضية.

ولم يخف على ما ينويه ولا ما يرمي إليه، فتغافلت عنه، ثم قلت له:

إن مولاي إدريس رضي الله عنه رجل عظيم حقا، وقد كان يجب لمعتقديه أن يقتدوا في تقواه وفي نصرته للدين، لا أن يتخذوه مفزعا كما يفزعون إلى الله.

فلم يكد سعيد يسمع كلامي، حتى أدرك ما أرمي إليه، فقال:

إنني ما فزعت إليه بل فزعت إلى ربه الذي خلقتني وخلقه بعد ما ترحمت عليه وجعلت ما وضعته في صندوقه صدقة يصله أجرها، وهذه نيتي، وأنا والحمد لله من أهل السنة الذين يحبون الصالحين ويترحمون عليهم ويودونهم للتقوى التي كانوا عليها في حياتهم، وإنما طلبت الله هناك ليقضي حاجتي لما يذكر من أن ملكا يقف عند قبور الصالحين يقضي حوائج الناس بإذن الله، أو ليس هذا الاعتقاد الذي سمعته مني هو اعتقاد العلماء المحدثين؟

فلم أزد على أن تبسمت له علما مني بأن الرجل لا مبدأ له يتقلب مع هواه كل حين، فإنه لو لاقى غيري لثبت على ما قاله أولا، ولما احتاج إلى التأويل، وربما زاد على ذلك ما عند الجمهور الذين يقفون على رأس مولاي إدريس فيتوجهون إليه بالله أن يقضي حاجتهم بجعل يقدمونه إليه أو يعدونه بهن وكل من كان في مثل مسلاخ سعيد قلما يجيد فيه وعظ، وغلا بهداية من الله، وكذلك أردت أن أترك المجمجة بيني وبينه، فصارحته بأنه بلغني كل ما يتعاطاه من المخدرات والمعجونات، فأطرق مستحييا، فقلت له:

- أتهدم صحتك هكذا، وتقضي على حياتك بهذه الأخلاق التي لا تلائم

من كان في مثل تلك الأسرة ؟ ولم ينشب أن تباكى إلي، وقال:

- دلني على ما أصنع لأنسى كل هذا. فقلت له :

- استعن بالصبر والصلاة وبمعاشرة الصادقين، فقد قال تعالى:(أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين). فالكون مع الصادقين مما يستقر به الإيمان في القلوب، وأما دمت في تلك المعاشرة السالفة التي تقضي بها لياليكن فلا تطمع في الإقلاع عن تلك العادة الخبيثة.

ثم أنني كفكفت ما أنا فيه، واندفعت معه في المحادثة المتبادلة، فصار يحكي لي عما يزاوله أصحابه خفية، مما يعرق له الجبين، ويتصبب السامع به عرقا، فقلت في نفسي وأنا اسمع ذلك منه:

-من هنا كان أمثال حماد أقرب إلى الخير في نظري من أمثال هؤلاء، فإن ظواهرهم عامرة وبواطنهم خراب، وقد مرنوا على خشية الناس وعلى الجرأة على الله مرانة تامة، ولا أصعب من إزالتها من جبلاتهم، بخلاف أمثال حماد فإنهم وإن كانوا يجاهرون – وكل الناس معافى إلا المجاهرين – يرجى منهم أن وجدوا ناصحا لبقا أن يرجعوا، وقد تربوا بالتربية الأوربية على الصراحة التامة، فلا يعرفون مجمجمة ولا مراوغة، فما اعتقدوه صرحوا به علانية، ومتى اعتقدوا غدا ضد ما اعتقدوا اليوم عادوا وصرحوا به أيضا.

بت عند سعيد، لا أنكر من أمره شيئا، فإنه تمشي على النمط الذي يعرف أنه موافق ذوقي، وقد صار يعلن في كل فرصة ابتهاجه بتوبته على يدي، فأقول في نفسي اللهم اجعلها توبة نصوحا.

## في ضيافة إبراهيم

قابلني أمام داره ذلك الصفي القليل النظير بين شبابنا المثقف العامل فبعد التحية دخل بي إلى موضوع التحدث حول أخيه حماد، فنفضت إليه كل ما كان بيننا من حين لاقيته إلى أن ودعني. فابتهج ابتهاجا ألقى على محياه نورا لماعا من البشاشة والنضارة.

وفي عشية اليوم تناولت رسالة من البريد فإذا بها من حماد، يقول فيها:

الأخ المؤثر المكهرب بقوة حجته (فلان) تركتني على أحر من جمر، فقد أثرت مني ما لم يثره قط من أعماق فؤادي مثير، حتى أنني بياض أمس، اعتزلت في غرفتي لدراسة ذلك الموضوع الجلل، ولم أكد افتتح التأمل فيه من كتاب «فلسفة الأديان» للعالم اجوست سباتييه، حتى فاجأتني موجة من التفكير غمرتني، فظلت أسبح على أجنحة التأملات سبح الذرة في أجواز الفضاء، فنسيت نفسي والكتاب الذي بين يدي، فوجدت لتأملاتي من اللذة العجيبة ما لم أجده في تأملات صاحب الكتاب، فظللت على ذلك من الزوال حتى العشي وقد حاول بعض المعاشرين أن يخرج بي في الأصيل، فاعتذرت إليه، وبقيت كذلك حتى مضى جل الليل، لئلا تنقطع عني لذة ما أنا فيه من إمعان التأمل، واكتب إليك وإلى أخي إبراهيم أعرض عليكما – إن وافقتما – تأخير ذلك المجمع إلى ما بعد أيام، ريثما أستقر وراء تأملاتي على قرار. وإلى اللقاء القريب.

وافقناه على ما اقترح، وأبرقنا لأخويه بأننا أخرنا المجمع إلى آخر الشهر الآتي، فبدا لي ولإبراهيم تحرير رسالة نشق بها الطريق أمام تأملات حماد، متكلين على الله في نفعها، وقد تراءى لنا من رسالته، أن الذي أطلق عليه

التأمل إنما هو حيرة، ونحن نعلم من علم النفسيات، أن الذي لم يكن من عادته قط إمعان الفكر في شيء يستعظمه تغلب عليه الحيرة، ويحتاج إلى من يوجه فكره إلى الناحية المخصوصة، ويستجمع قوته إليها، وقد كنت أريت حمادا كيف يفكر في الموضوع وكيف يدرسه ويبدأه على أساس ما يعلمه مما وصلت إليه العلوم الكونية اليوم من السعة والتدقيق في النبات والحيوان وأجواز السماوات، ولكنه مغلوب كما يظهر بأمواج الحيرة، فأشفقنا عليه أن يسبح كثيرا على غير الوجهة المقصودة، فكتبت إليه الآن هذه الرسالة على نهج ما تقدم مني إليه:

الدكتور العزيز الفاضل حماد قبلنا اقتراحك، وأجلنا انعقاد المجمع إلى آخر الشهر المقبل بحول الله.

إن الإنسان غير الحيوان الأعجم وليس التفاوت بينهما بالكلام البين المتزن النبرات المعلن ما في خوالج الضمائر فقط بل كان التفاوت الأعظم مرتكزا على أن الإنسان يشعر دائما أو في فينة بعد فينة على الأقل، بأنه لا يكفيه لسعادته المطعم والمشرب والمأوى، بل تتوقف غاية التوقف على ما وراء الماديات، فتتطلب إحساساته مطالب معنوية، تريد أن تستمدها من غير الماديات، فيطلبها بعضهم في مغازلات الهوى العذري إن كان حبه عذريا لا غرض له في الاستمتاع بالشهوة البهيمية، ويفتش عنها آخرون بين أصداء الشهوة الطنانة، فتراهم ينفقون كل ما في أيديهم من المادة لتذوق لذتها المعنوية، أو تراهم يتعرضون بين القنابر للفتك الذريع، تلذذا بطنين ما يستمتعون به من سمعة الشجاعة والإقدام، فيجودون في ذلك بجميع ما بين أيديهم من أولاد وأموال، بل بمهج الأرواح – والجود بالنفس أقصى غاية الجود – أو تجد آخرين

يستميتون وراء معتقدات تأثروا بأرواحها غاية التأثر، فلا يبالون بالماديات ولا بكل ما إليها، بل يبذلون هذه الحياة وكل مباهجها ومتعها عن طيب نفس، ووجوههم متهللة منتظرين لحياة أسمى وأعلى.

فما هذا الشعور الذي يسود على الإنسان ولا يسود على غيره من الحيوانات؟ وما هذا الإحساس الذي تغمره أمواج موجة وراء موجة، حتى لا يكتفي بمتع المادة فقط؟

فأما هؤلاء الذين يسبحون في الهوى العذري، أو كانوا مجنونين بالشهرة أو طيب الذكر، فإن متعهم كلها وإن كانت معنوية، مقصودة على هذه الحياة، ولكن الذي يستلفت أنظار المتأملين، وأفكار الباحثين، هو هؤلاء الذين يسقيهم دين من الأديان كأسا دهاقا، ويبعث منهم عاطفة متأججة، فنجدهم لا يبالون بما يبالي به أصحاب الهوى العذري، ولا عشاق الشهرة الطنانة، من متع هذه الحياة فلا يجعلونها المثل العليا.

ما هو الدين؟ ما هو الإله الذي على اعتقاد وجوده يدور محور كل دين؟ أحقيق أن هذا الإله هو الذي خلق هذا الوجود على هذا النظام العجيب الذي يراه؟ أصحيح أن القوة التي أوجدت هذا العالم هي التي تتولاه دائما في أطوار تغيرات كل ما فيه من غروب شمس وطلوعها، ونبات الأشجار ونضارتها ثم ذبولها، وتكون الحيوانات من بين أحشاء الأمهات بكبرها فكهولتها فشيخوختها فموتها؟ أصحيح أن الإنسان العاقل العالم المدجج بأسلحة المعارف وبالتجارب لا يزال ككل ما سواه من الحيوانات العجماء تحت يد تلك القوة، فهي التي تسيره كيف تشاء، وتميل به حيث تريد، وأن

إرادته إنما هي قبس من إرادتها؟ وهل حقا هذه القوة موجودة، أم إنما كل ما تقوله الأديان ويتبادر إلى الإحساسات أوهام؟ أوهام تلقنها الصغير من الكبير، وتلقاها المتأخر عن المتقدم؟

يجب على طالب الحقيقة ممن يجلس إلى مشاعره وإلى إحساساته أن ينتحي في حين من الأحيان إلى منعزل، فيجرد نفسه من كل ما كان يعلمه في هذا الموضوع قبل، أو طالعه أو سمعه سواء من جهة أصحاب الأديان أم من جهة الملحدين الكافرين بالأديان، ويتمشى على طريقة ديكارت في نبذ كل ما أثرته فيه الوراثات والبيئات، فحسب نفسه كأنه لا علم له بالموضوع، ولا له فيه تفكير قط، إلا الساعة، ثم يطلق إحساساته ومشاعره في أجواز التأمل، مستضيئا بعقله الذي هو نبراس الإنسان المختص به من بين ما حواليه من المخلوقات، ثم يجول جولة بين السماء والأرض، يبدأها من نفسه. فيقول:
ها أنا ذا موجود بلا ريب، وهل يمكن أن يكون موجود بلا موجد؟ أو لا بد لكل محدث من محدث، كما قال غارفليد: (لا تحدث الأشياء في هذه الدنيا ما لم يحدثها أحد) وليتأمل بعقله، لو كان يمشي في فلاة خالية فوجد آلة من آلات المذياع أو الحاكي ملقاة ولم يكن له بها علم قطن ثم اهتدى إلى إطلاق الأصوات الرنانة من الآلة: أكان عقله يعتقد أن تلك الآلة وجدت هناك بغير موجد؟ ثم إن أمعن النظر في داخلها ورأى كل ما تحتوي عليه، أكان يحسب موجدها عاملا بحكمة، أم أن وجود كل أجزاء الآلة إنما كان مصادفة ؟ فلا ريب أنه يخرج من هذا التأمل بأن للآلة موجدا وأن ذلك الموجد عالم عامل بحكمة، فإن خرج بهذه النتيجة من تأمله في تلك الآلة، فإن النتيجة التي يخرج بها في تأمل أجزاء جسمه، خصوصا أن نظر إليه بوساطة علم التشريح،

أعظم من النتيجة التي رجع بها من تأمل الآلة، لان تركب الجسيم بكل ما يحتوي عليه، وكل جزء يودي وظيفته من غير إرادة خاصة من الإنسان صاحب الجسم، وأما إن أضاف إلى أجزاء الجسم الروح التي تدبر الجسم تدبيرا لا يزال مستعصيا عن مدراك العقول كما استعصى عليها إدراك منه الروح، فإن النتيجة أعظم وأعظم، ثم إذا تجاوز المتأمل في جولته هذه جسمه إلى عالم الحيوانات المختلفة المدارك، العاملة عملا واحدا بتمييز متحد، أغرب وأعجب، فإن شعوره بصحة النتيجة المتقدمة، يزداد ازديادا عظيما، خصوصا إن نظر بنظر ما أدركه العلم في دارسه عالم الحيوان، فاعتبر تأثير الحرارة على خلايا الحيوانات من حيث التحلل، والتركب، والتبخر، والامتصاص، والإفراز، ويزداد عبرة بإجالة نظرة حول غرائز أمثال النحل والنمل، ثم إذا وصل عالم النباتات فتأمل تأثير أشعة الشمس على المادة الخضراء في أوراق الشجر، وضرورة تلك المادة في النمو والازدهار، وكيف تتنفس خلايا أوراق الأشجار ؟ وكيف تتسرب ذرات الأوكسجين وجزئيات حمض الكربونيك منها إلى الأجزاء، فتتكون السوق والأغصان والأزهار والأثمار؟ كيف تختلف الأثمار من أنواع الأشجار في الألوان واللذات والأشكال والحجوم، وكيف تتلون الأزهار بألوان عجيبة تبهر الأبصار؟ وكيف تؤتي كل هذه النباتات أكلها أو أزهارها أو حبوبها في مشارق الأرض ومغاربها على كيفية منظمة؟ إذن يدرك أن القوة التي تتولى تسيير كل ذلك ليست إلا قوة عاملة بحكمة تفوق حكمة الإنسان.

وأما إذا أجال المتأمل عينيه في السماء، فرأى ءاية النهار، وأدرك أن منها مستمد القوة التي يعيش بها حيوان الأرض ونباتاته، فإنه يدرك أن موجود الأرض هو هو بعينه الموجد للسماء بدليل توقف ما في الأرض على ما في السماء، كما نرى من احتياج كل ما في الأرض إلى حرارة الشمس.

ومتى سبح بعقله مع سابحات الليل ورأى القبة الخضراء المرصعة بنجوم بيضاء، ورأى كيف تتحرك تلك المجموعة الشمسية العجيبة بكيفية مدققة الحساب، وأن عددها يصل فيما يدركه علم الإنسان إلى ملايين، ثم لم تكن تلك المجموعة الشمسية إلا مجموعة صغيرة من المجموعات التي أدرك الإنسان بعلمه وعقله وجودها، ثم عجز علما وراءها كما لا يزال عاجزا حتى في إدراك حقائق عظيمة في جسمه، فإنه يرجع وهو يسلم يقينا قدرة تلك القوة، وعلمها الواسع سعة يعجز العقل عن إدراكها.

لا ريب أن العالم، كحضرتك أيها الدكتور، إن جال مثل هذه الجولة، مستعينا أولا بعقله وبشعوره وبإحساسه، ثانيا بما علمه مما وصل إليه علم هذا العصر في دراسة الكون والنبات والحيوان وغيرها، جدير بأن يستنتج نتيجة عظمى في هذه الجولة، تسود سماسرة الإلحاد، وأسرى المادة، ولا سيما إن درس مع ذلك علم الأرواح، فإنه يدرك أن للعالم موجدا بلا ريب ولا شك، وأنه كما أوجد المحسوسات أوجد أيضا عوالم لا نحس بها بديهة، ولكنها موجودة يقينا، وهذا الموجد هو الله لا إلاه هو عند أصحاب الأديان، وهو الذي يعنيه غيرهم بالقوة الخفية العاملة بحكمة.

وأرجو أن تهتدي أولا من دراسة نفسك فتفكر كيف خلقت من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم صرت جنينا، ثم طفلا، ثم شابا ثم كهلا كما كنت اليوم وأنت ابن 45 سنة، فلا ريب أنه ليس لوالديك في نشأتك الأولى يد، ولا لهما أيضا يد في تنمية أجزاء جسمك، ففكر في هذا كثير، فإنه مفتاح تلك الجولة وهو نهايتها.

وأما كتاب (أوجست سباتييه) وكثير من أمثاله ككتاب (تاريخ الأديان) لرينان، فإنها لا تخرجك عن التقليد. فهذا كتاب الكون مفتوح أمامك، فاقرأ سطوره الوضاحة البينة ترشد، فإن ذلك أقرب لما تريد، وإلا فكيف تنتفع إن لم تدرس لنفسك، بقولة أو نسب رينان في كتابه المذكور:

(إن الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه من ملاذ الحياة، ومن الممكن أن تبطل حرية القوة العقلية والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أبدا، وسيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر فكر الإنسان في المضايق الدنيئة الطينية) وبقولة أجوست سباتييه في كتابه المذكور:

(لماذا أنا متدين؟ أنا متدين لأنني لم أستطع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي يقولون لي: إن ذلك أثر من آثار الوراثة، أو التربية أو المزاج، فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيرا بهذا الاعتراض، ولكنني وجدتها تقهقر المسألة ولا تحلها، وإن ضرورة التدين التي أشهدها في حياتي الشخصية أشاهدها بأكثر قوى في الحياة الاجتماعية البشرية، فهي ليست أقل تشبثا مني بأهداب الدين، فالدين باق وغير قابل للزوال، لا ينضب ينبوعه بل نراه يتزايد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة).

إن أمثال هذه الأقوال لا ينجع دواؤها فيمن ارتطم في أدران الشبه، وكان قلبه في غلاف من الشكوك، فما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت بنفسك الدراسة لنفسك فإن التقليد لا يحبه عاقل، ولا يقول به عالم ولا يجيد نفعا في أي دين.

إن أسباب البحث لا يعدمها الإنسان، فإن في طواياه شعورا خفيا لا يزال يدعوه إلى التأمل في أنه ضعيف، وأن ضعفه حقيقة لا ريب فيها، وكثيرا ما يدعو شعور من لا يقول بالله صاحبه إلى مراجعة الحق حين تصدمه إحدى الحوادث التي لا تنقطع عن الإنسان في كل حياته، فمن أصيب بمصيبة من هؤلاء يحس من ضميره منبها على الرجوع إلى الإقرار بالضعف، وإلى إسناد القوة لمن أوجده من العدم، ولكن كثيرا ما يمر هذا الشعور بالماديين الملاحدة، كوميض البرق، حين لا يجد منهم إصاخة ولا من إرادتهم التفاتة، ولا من عقولهم أية انتباهة لذلك، قال بعض الفلاسفة في الموضوع:

(إذا أصيب الإنسان بمصيبة تلظى فؤاده نارا، وكادت نفسه تطير شعاعا، وشعر بحقيقة ضعفه ووهنه وأحس بضئولة قوته وحوله، وإدراك كنه مركزه في هذا الوجود الهائل، وعرف أنه فيه غريب وحيد، بل طريد شريد، أينما يوجه لا يجد معينا له على بلائه، ولا مقيلا له من تعثره في ذيول لإوائه، يرفع رأسه إلى السماء فلا يرى إلا الكواكب الزهر تسبح في الفضاء، والصمت شعارها، والسكوت ديدنها ويرمي بعينيه إلى الأرض فلا يرى إلا غيرانا وجبالا وهضابا وتلالا، إن ناجاها ارتد عليه صوته أو ذهب أدراج الرياح، ثم يرجع إلى نفسه فيرى حوله قومه وبني أبيه، وليس فيهم احد منزه عن مثل ما ألم به – وهبه مليكا متوجا، أو عالما عبقريا، أو غنيا بألقاب المليونير مكللا – فليسوا بأقل احتياجا لتلمس المخلص من مهددات الوجود ومبيدات الحياة، إذن ماذا يعمل هذا الإنسان وهو في تلك الحالة الحرجة والموقف الصعب؟ بأي ركن يعتصم وإلى أي ملاذ يلوذ؟ على أي سند وفي أي مساعد يؤمل النجاة؟

ليس أمامه إلا الترامي بين يدي تلك القوة الأزلية التي أخرجته من العدم، وقضت عليه بما هو فيه من ذلك الحال، تلك القوة التي أقامت هذا الوجود على دعائم الحكمة غير المتناهية، تلك القوة التي لم تضع شيئا في غير محله، ولم تهب شيئا بدون فائدة، تلك القوة التي وهبت الإنسان هذا الفكر الطموح، والعقل الجموح، والإحساسات المتعاكسة، والميول المتضاربة، لحكمة بالغة ومقصد عظيم.

إذا ألقى الإنسان بنفسه بين هذه القوة، ثلج صدره، واطمأن على نفسه، لتحققه أن هناك قوة معتنية به ومهيمنة عليه ولو فقد الإنسان الثقة بهذه القوة فكيف تدخل نفسه طمأنينة، لم يتذوق لذة الراحة والسكينة).

ما أكثر غرور الإنسان، وما أجهله لإنسانيته وبما يراد منها، فقد يحكم على نفسه بأنه والجمادات سواء، أو ليس الجاهل المغرور يقول: إن هو إلا وجود قصير لا فائدة وراءه ثم لا حياة بعده، فلو أن إنسانا رأى آخر عمد إلى فلاة بقاع خالية، فبنى فيها قصرا عظيما فيه كل ما انتهى إليه فن المعمار من الهندسة التي تبهر العيون، وتستنفد العجب، ومن زخرفة خلابة النميقات، غريبة التنسيقات، بألوان باهرة، وتذهيبات متلألئة، وترخيم مجزع، وتزليج مرصع، ثم نسق حدائق حوالي القصر، ترف بأنواع الأزهار صنوان وغير صنوان، تتخللها جداول متدفقة بالنمير الزلال، وهي تتلوى بين حياض الأزهار المنظمة وتحت ظلال الأشجار المخضرة، ثم لم يعد الباني هذا القصر العجيب إلا ليمكث فيه ثانية فقط ثم يدعه لخراب ينعق فيه البوم، وتتخذه الغربان معششا، لعد منه ذلك حمقا أي حمق، وبلها يستحق به أن يودع في مستشفى المجانين.

أفليس كذلك من يرى كيف خلق الإنسان هذه الخلقة العجيبة بروح لا تقنع إحساساتها بالمادة، وبعقل طموح يتسع محيطه لكل هذه الكائنات على رحبها، ثم يزعم أن الحكمة التي نسقت الإنسان أحسن تنسيق، لم ترد به إلا هذه الحياة وحدها، وهي كلا شيء بين تطاول الأزمنة الماضية والحاضرة، وزيادة على أنها حياة قصيرة مفعمة بالأرزاء، وبمعارك ممضّة فيما وراء القوت، تنكسر فيها النصال على النصال.

ألا فليعتبر في ذلك المعتبرون الذين يقولون: إن هي إلا أرحام تدفع وقبور تبلع، فأي فرق حينئذ بين الإنسان والبهائم التي يسخرها الإنسان؟
أيها الدكتور الجليل، هناك بعض أفكار حضرت، لعلها تساندك في دراستك حول القوة الموجودة للعالم، أهي عاملة بحكمة أو لا؟ وإلى اللقاء.

**[6]**

جلت بصري في غرفة مضيفي- ولم أكن أجـهلها قبل، وإنما سنح لي أن ازداد بها معرفة، بعد ما رأيت غرفة أخيه الصوفي، وما تحتوي عليه من الإناث والكتب الصوفية، وغرفة أخيه حماد المحتوية على صور تمثل التهتك والخلاعة، وبضعة روايات غرامية بين شرقية وغربية جلها على نمط التهتك العريان، فمددت نظري أجول به في إنحاء المكان، فابتسمت حين أرى إناث المكان مزدوجا يجمع بين الذوق الشرقي والذوق الغربي، ففي مشجب جبة شرقية وعلى أخرى معطف فرنجي، والمصحف على مرقع جميل في وسط صوان براق، وفي مقابلته بضع صور لبعض عظماء من الشرقيين والغربيين، من بينها صور جلالة الملك وولي عهده، ومن بينها صور لويد جورج، وويلسون، وماركوني، ثم قمت إلى الكتب التي على المنضدة الموضوعة في إحدى زوايا المكان، فوجدت العربية والفرنسية متجاورة، ففيها حياة محمد صلى الله عليه وسلم لهيكل، ومقدمة التفسير لفريد وجدي، وفتوحات العلم الحديث لصاحب المقتطف، وبضعة أجزاء من تفاسير مطولة، كروح المعاني، وأجزاء أخرى من تواريخ ابن خلدون، ابن الأثير، وكتب أدبية كابن خلكان، ونفح الطيب، وبعض روايات المنفلوطي، وإزاءها قاموس فرنسي، ودائرة المعارف الفرنسية، وبعض روايات لشكسبير، ومؤلف دانتي حول الجحيم فقلت :

هكذا تمثل مكتبة إنسان نفسيته بلا ريب.

ثم قمت إلى خزانة الكتب الواسعة وهي مفتوحة إلى ممر المكان الذي نحن فيه، وهي على قسمين عربي وفرنجي، فبقيت هناك ما شاء الله أفتش عن كتب أراجع فيها بعض ما توقفت عليه، وقد أعجبت بنظام الخزانة، وان

كان ذلك ليس بعجيب من أمثال إبراهيم المرن على النظام في كل شئونه، فالنوم في وقته، والأكل في وقته، والصلاة في وقتها، والاستراحة والتحدث إلى أهله في وقتهما، والخروج إلى متجره والدخول منه في الدقيقة المعتادة لا يتقدمها ولا يتأخر عنها، وقد حمل كل من معه من عملة متجره ومن كتاب كنانيسه على ذلك حتى مرنوا عليه، وكثيرا ما يتأسف على انه لم يستطيع بعد، أن يرى من أمته كثيرين اتصفوا بالنظام، العمل دائما، والنظام أصل من أصول الإسلام.

السيد العربي يحضر

فاجأنا البواب ونحن في الأصيل، بأن السيد العربي في الباب مع رفيق، فبادرت مع رب الدار فلاقيناهما، وكان اليوم باردا، فجاء السيد العربي ملفقا برداء وسلهام صوفيين أبيضين، وفي رجليه خفان أحمران من جلد، وعمامته المكورة اكبر مما رايتها في سلا، وقد اكتحلت عيناه، وفي يده عكازة ملساء، في أعلاها تفاحة حمراء فلم الق عليه طرفي وهو بهذه الهيأة المسترعية لكل ذي بصر، حتى تذكرت زي أخيه حماد، فإنهما في إلهيا على طرفي نقيض.

قال الضيف بعد الجلوس :

إن هذا السيد الذي معي هو الفقيه العلامة المحقق المدقق المشارك الفهامة المؤلف سيدي احمد بن عبد السلام، وهو الحمد لله من طبقة الرعيل الذي أخذنا عنه وان كان في مثلي سنا، لان نجابته العظيمة أهلته أن يتولى التدريس قبل أن يكون ابن إحدى وعشرين سنة، فله حاشية عظيمة على توحيد ابن عاشر، وقد أمضى في تنقيحها جل عمره-يرى تلك السن في غاية

التبكير في ميدان النجاح- وان كان إلفها قبل أن يكون ابن إحدى وعشرين سنة، فهو نظير الاخضري المؤلف للسلم في السن، ومثل الشيخ خليل في المثابرة على تنقيح مختصره.

ثم حملق بعينيه ولم يدري إلا الله ماذا يقصد بذلك، فقال :

أرأيت كيف يكون العلم والعلماء. لا ما يستهوي الأغنياء الاغمار الملاحدة ممن طمس الله بصائرهم، وخلف ضمائرهم، فصاروا يظنون العلم موجودا حقا في غير المسلمين.

ولم يكد يقول هذا، حتى تذكرت ما كان جرى بيني وبينه في سلا حين ذكرنا حكاية البعرة التي فقأت العين، فعلمت حينئذ أنني هو المقصود الآن بتلك الحملقة، فهكذا برهن على انه لم يسلم لي ما كنت قلته له إذ ذاك، وحين كنت اعلم عقلية أمثال هؤلاء، تغافلت عن كل ذلك، ثم التفت إلى الفقيه، فازددت به تعرفا بسلام جديد-على العادة - ثم أبى الشيخ الصوفي أن يترك الجو حتى يكهربه، فقال :

أن هذا الفقيه مؤرخ أيضا، وستجد عنده-والحمد لله ما يزال به خجلنا نحن أهل جيله، إن لم نقدر أن نخوض معكم في تلك الأخبار - وإن كانت علما لا ينفع وجهلا لا يضر، كما يقوله سيدنا مالك إمام دار الهجرة رضي الله عنه.

فقلت : جعل الله فيكم يا سادتنا البركة، وأطال لنا أعماركم، وسقانا من علومكم، فان كان سيدي احمد يقبل الأخوة لله معي فإنني أكون ممنونا بذلك، فلم أزل بمثل هذا الكلام أزيل به عن صدر السيد العربي ما أحس به قد ملأه نحوي، لأنني دائما اكره مساءة هذه الطبقة الممتازة بالإخلاص في الدين،

الموقنة بأنها على الحق أبدا حق اليقين، وكنت أدافع عنها في كل محفل من محافل الشبان المولعين بالعبث بها والسخرية من جهلها بهذا العصر، ومن عادتي أن أتجنب المحاورة معها في العلوم الكمالية التي ليست من صميم المعتقدات، ما لم اضطر إلى تبيين الحق وإبطال الباطل، ثم لا افعل ذلك حتى يكونوا هم الملحين علي، وان كانوا بعد أن يفشلوا في المناظرة، يحملون لي مثل ما يحمله نحوي هذا الشيخ الصوفي الجليل إثر ما حصل بيني وبينه في سلا.

حدث السيد العربي أنه ما أتى به بعد أن تلقى الخبر بإرجاء المؤتمر، إلا ليفهم مني، أيقدر أن يؤمل من حماد قبول الإسلام أم ينفض منه اليدين أبد الآبدين.

وقد ذكر انه ارتاع حين اقترح حماد إرجاء الاجتماع إلى ما بعد قليل، لظنه أن حمادا إنما قال ذلك تملصا من المجمع خوف أن يغلب فيه بالحجج والبراهين الكلامية، فقلت له:

إن لي رجاءً أكيدا في أن يهدي الله الأخ إلى ما تحبه، ثم حكيت له ما أمكن، مما ألقيته على حماد لعه يفكر في أمر الدين، فقال: إيه، كيف قلت له ؟ قاعدت عليه ما قلت بكلام أكثر تفضيلا، وقد تضمن بعض ما سمعه مني في سلا من أن الأولى إقناع أمثال حماد بدراسة الكون ودراسة ما حواليه، فقال :

ماذا تقول أو لم تعرف ابن عاشر ؟ فقد كان الواجب المحتم عليك أن تقرا معه ابن عاشر وتتبع معه توحيده يشرح ابن كيران وحاشية سيدي محمد القادري، فأما ما تقوله فانه يبعده عن المقصود منه، ولا أراك إلا ستحرمنا من أخينا، ولو كنت اعلم الغيب لما تركتك تلقاه قبل أن نجتمع معه، فتلقي عليه

البراهين المستمدة من المرشد المعين ومن أم البراهين و...

فقاطعه السيد أحمد بن عبد السلام فقال : كان هذا الفقيه لم يستحضر إذ ذاك ما قال بعضهم :

**عليك إذا رُمت الهدى وطريقـــه**
**والديـن للمولى الكريم تَدينُ**
**بحفظ لنظم كالجمان فصولــــه**
**وما هو إلا مرشد ومعيـــــنُ**

ثم قال السيد أحمد : أن في عقيدة السنوسي المنثورة لكفاية لمن استعصى عليه فهم المنظومة لابن عاشر، ثم قال : وناهيك بشهادة الفقيه العلامة الصدر الأوحد المجاهد المتقن للمذاهب الأربعة فحل العلماء الذي تشد إليه الرحال سيدي عبد الله الورياكلي، في عقيدة السنوسي، فانه لما اتصل بها يوما وهو في مجلس تدريسه من رجل اقبل من تلمسان، فتأملها وتصفحها إلى آخرها، قال : الله اكبر والله ما خرج هذا الكلام إلا من صدر منور، ولله على أن لا تفارقني هذه العقيدة، ثم ادخلها في جيبه، فكان ذلك هو السبب حتى اشتغل الناس بقرائنها، وقد اجمع الناس كلهم على أن لا يأخذوا التوحيد إلا من عقائد السنوسي أو من المرشد المعين، ومن فعل ذلك فقد خرق الإجماع.

فقال الـشـيخ الصوفي: ذكر أهل الكشف أن عقيدة السنوسي تقرا في الجنة كما تقرا في الدنيا، فهل عقيدة تقرا في الجنة تترك هي أو مثلها إلى كلام عقلي محض؟ أن هذا لهو الضلال المبين.

فقال له السيد أحمد: هذا من تحكيم العقل، ولا يحكم العقل إلا

المعتزلة لعنهم الله.

فقال له الشيخ: كان أسلافنا يبكون على الدين من المعتزلة لعنهم الله، مع أنهم مسلمون، وأما نحن اليوم فكيف يكون بكاؤنا من ملاحدة وأنصار الملاحدة؟ -كأنه يعنيني - ثم زفر زفرة يكاد ينشق بها صدره. فأهويت (وقد ظهر التأثر على وجهي) لا تكلم، فإذا بإبراهيم يقول : جزاكما الله خيرا، ورضي عنكما، فببركتكما إن شاء الله ينتعش الدين، ثم قال : إن وقت الصلاة قد وصل، فأقام الصلاة فصلينا المغرب وقرئ الحزب، ثم اشتغل الشيخ بأوراده المستمرة إلى العشاء وهو مستقبل القبلة، فانتبذت أنا أيضا عنهما بكتاب إلى ناحية أطالع، والفقيه السيد احمد يقرا شيئا يثيره إلا أن كلمات تفرط منه، فهمت منها انه يكرر محفوظاته العلمية فقد كان من بين الذي سمعته بيت من الزقاقية، وآخر من العمل الفاسي، وآخر من السلم، وأما إبراهيم فقد كان من عادته دائما إذ ذاك أن يكون في جناح الدار المختص بأهله، يعين أم الأولاد في إيناس صبيانها المتعددين المتقاربين في السن حتى يناموا، وكان يفتح لهم مفتاح المذياع حتى يناموا تحت رناته، وكان يرى إيناس أولاده في ذلك الوقت واجبا عليه، يؤدي به ما عليه نحوهم من الحقوق، لأنه يقضي جل النهار من أيام الأسبوع في تجارته ولا يستريح إلا الجمعة، إلا إنني اليوم لم اسمع صوت المذياع، فعلمت انه راعى شعور أخيه الصوفي المتزمت...

وبعد العشاء جلسنا إلى مائدة العشاء، فصار رب المثوى يسائل الفقيه عن أخبار علماء إدراكهم، وقد حرص إبراهيم على أن لا تنقطع سلسلة الحديث حول ذلك الموضوع، فأدركت انه يريد أن يحول بيننا حتى لا ننتشب

ثانيا في موضوع نكون فيه أيضا على طرفي نقيض.

وبعد التعشي بسرعة-والشيخ ملازم للصمت ويده وسبحته الغليظة في رنات حبة إثر حبة-قاد إبراهيم الشيخ إلى سرير نومه، كما قاد الفقيه إلى آخر في غرفة أخرى، ثم اخذ بيدي، وسار بي إلى خارج الدار، حتى جلس بي على مقعد في وسط الحديقة فقال-وهو يبتسم-: كدت تفسد علينا آنفا لو أجبت بجواب مخالف لما يقوله السيدان، الخطة التي رسمتها لألفة رجال الأسرة.

فقلت: ما كنت لأجيب إلا جوابا لابد أن يسمعه الشيخ إما اليوم وإما في أثناء المؤتمر، أو تظن أن الشيخ الذي لا يعرف إلى التوحيد إلا ما ذكره آنفا، يسكت عنا حين نحاول إقناع حماد بالطريقة التي ارتأينا إقناعه بها؟ بل الأحسن أن تكون مناظرتنا في هذا الموضوع مع الشيخ في غيبة حماد، لئلا يجد حماد في صفوفنا انشقاقا - في مبحث التوحيد على الأقل- فيردده ذلك في الحافزة بعد ما رأيناه يحاول التخلص من هوتها.

فقال إبراهيم: إذا كان الأمر هكذا، فحاول غدا أن يكون جوابك الذي اعرف كيف هو، موجها إلى الفقيه، فانه متى انخنس الفقيه ينخنس أللآخر، وسأرشح الفقيه كاقتراح مني إلى الشيخ ليحضر معنا في المؤتمر أيضا، وسيبتهج الشيخ بذلك، إن لم يكن ذلك منذ الآن هو مقصوده حين صاحبه إلينا، فيريد أن يقول لك: أن معي من يناصرني.

فقلت : كادت مرارتي حقيقة تنشق آنفا بكثرة تلك الألقاب التي تتراكم أمامي على كل من يذكرون، وبجهل أمثال هؤلاء الكيفية التي كان القرءان يدعو بها الناس أجمعين، وانه يأمرهم بتحكيم العقل بإجالته في ملكوت

السماوات والأرض، والموضوع الذي لا يقول فيه أهل السنة بتحكيم العقل غير هذا المقام، والذي هو العجب منهم كونهم يصبون اللعنات على المعتزلة، ثم لا يزالون يقولون أنهم مسلمون، وهذا كله غفلة مرنوا عليها فقط، واتبع فيها التلميذ الأستاذ اتباعا أعمى، وقد انعدم المنبهون، أو فقد المنتبهون، وإلا فكيف تجوز لعنة المسلمين؟ وأما حاشية الفقيه على شرح ابن كيران التي ذكرها الشيخ وأطال في وصفها، فقد ذكرتني حكاية سمعتها من احد أساتذتي النبهاء الكبار، وكان يتندر بذكرها، قال :

ألف فلان حاشية على توحيد ابن عاشر، وكان يراها رؤية البخيل لدرهمه الوحيد، فصار يدور بها على الفقهاء يقرضون عليها، فأتاني بها فأجلت فيها بصري، فلم أر فيها تحقيقا ولا تدقيقا، ولا مدلول كل كلمة آخرها (قيقا)، فطرحتها في جانب كتبي، فكان كلما سألني عنها اعتذر له بأنني ما كتبت عليها بعد، وأنا لا يتركني ضميري أن أقول الكذب الصراح في الكتابة عليها، فسبق إلى ذهنه إنني أعجبت بتحقيقاته وتدقيقاته فأردت أن أطاوله انتظارا للطوارئ، فاستبد بها فانسبها إلى نفسي، أرأيت إلى ما يصل إليه بله بعض الناس الذين لا يفرقون بين ناس وناس ؟ وفي عشية بعد ظلام الليل طرق علي الفقيه الباب، فلما خرجت قال: إنني الآن جئت لأذهب بكتابي، ولا يمكن أن اتحلحل من هنا بأية قوة حتى اذهب به، وان كان ما كان، ثم جلس أمام الباب جلسة من يريد أن يؤيد قوله، فقلت له: اتئد، فخرجت إليه بكراريس الكتاب، فناديته إلى مصباح من مصابيح الزقاق، فصرت أناوله كتابه ورقة ورقة، وأنا ألزمه إلزاما أن يتثبت في كل ورقة حتى يوقن أنها متصلة بأختها، فما زلت معه كذلك كراسا كراسا حتى تم الكتاب، فقلت له : هل هذا كتابك بنصه وفصه ؟ فقال: نعم. فقلت له : لابد أن تعطيني خط يدك بأنك توصلت

به تاما كاملا كما كنت دفعته لي، لان ذمتي بإقراري بأخذه عامرة بيقين، فلا تبرا كذلك إلا بيقين، فحاول أن يعتذر كأنه خجل، فقلت له : لا اتحلحل من هنا ولا تفارقني أنت كذلك، حتى تبرئ ذمتي من هذا العلق العظيم الذي لا يقوم، فمددت إليه الدواة والقرطاس، فكتب رسم التبرئة تاما كاملا، وهكذا كلت له صاعا بصاع.

كذلك هذه الحاشية، ربما لا تكون إلا صنو تلك في تحقيقاتها، ولكن هذه الطبقة معذورة غاية العذر، فمن يتطلب منها غير هذه العقلية فانه الأحمق المافون، ويكفينا منها أنها كانت خير واسطة بيننا وبين من قبلنا، واللوم كله على طبقتنا هذه، التي انفتحت المعارف أمامها ثم ترى بعض شبانها يتمشيخ، ويتجمد، ويريد أن لا يزال مقيد الفكر، وان لم يكن في الحقيقة شيخا ولا جامدا ولا مقيد فكر، وإنما كان له في ذلك مئارب.

نعــود بالله من أنــاس تمشيخــوا قبل أن يشيخـوا

وأما عقيدة الشيخ السنوسي رضي الله عنه وكذلك منظومة ابن عاشر فإنهما تؤديان اليوم مثل ما كانتا تؤديانه أمس، ولا عيب فيهما ولا في أساليبهما، ولمن أراد أن يسلك تلك الطريقة، وأما من أراد أن يسلك طريقة أخرى، إن اقتضاها الحال، فهل سلوكه هذا يخرق ذلك الإجماع الذي يزعمه الفقيه آنفا ؟ وليت شعري كيف هذا الإجماع ؟ فان كان يقصد انه لا يؤخذ التوحيد تدريسا عندنا إلا من المرشد والسنوسية، فانه غفل أو تغافل عن (البيقونية) (وإضاءة الدجنة) (وتوحيد الرسالة) وغيرهما مما لا يزال يتعاطى إلى الآن، وان كان يريد الإجماع على شيء آخر فما هو؟ والحقيقة أن إجماعات كثيرة عند هؤلاء، ينبغي أن لا تعتبر أكثر مما تعتبر إجماعات ابن عبد البر.

استفاق الشيخ في وقته المعتاد، فصار بذكر الله جهرا بأعلى صوته وقد خرج إلى الحديقة، فكان ذلك هو السبب حتى استفاق الجميع، إلا إبراهيم فانه لم يفارق مضجعه إلا في وقته المعتاد قبل الفجر بنصف ساعة، فادينا الصلاة فبقي الشيخ في موضعه مستقبلا إلى أن صلى الضحى، والفقيه يتلو أيضا سرا، ولعل متلوه اليوم هو عين ما كان يتلوه أمس، وأما إبراهيم فقد كان من عادته إذ ذاك أن ينفرد في غرفته الخاصة يتلو في المصحف، ورده الدائم، وكان يراجع أثناء التلاوة، وربما كرر ءاية يتفهمها، وقبل طلوع الشمس بقليل، أيقظ بنفسه أولاده ووقف عليهم حتى توضاوا وغسلوا رؤسهم - لأنهم على الزي الجديد كأبيهم وأمهم - ثم صلوا أمامه، وجلسوا حوله، فحكى لهم نادرة صغيرة تدل على الأخلاق، وهم يتناولون اللهنة، ثم خرج بهم حتى دفعهم إلى الخادم يوصلهم إلى المدرسة، وتلك عادته الدائمة، وعند الضحى غادر الدار إلى متجره، وتركنا وحدنا، وقد استأذن في الذهاب.

فمدت الخادم مائدة الإفطار، وفي أثنائها قال لي الشيخ: إن إبراهيم اقترح أن يحضر الفقيه سيدي أحمد في مجتمع الأسرة المقبل، وحسنا فعل، لأنه نبراس العلوم، وينبوع المعارف، وشعلة الذكاء، ومجمع كل الفنون، وصفوة الأبحاث، ومراءاة النقول، فأعلنت بانطلاق واستبشار وابتهاج: إنني مسرور غاية السرور بذلك، والحمد لله على التعارف. ثم داخلت الفقيه في المحادثة، ولم أزل به حتى أوقعته في موضوع أمس، فالتفت إلي الشيخ: وقلت له : بإذنك يا سيدي نستنم مذاكرة أمس، فان المغرب دهمتنا قبل إن نستنمها. فقال : الأمر سهل، فالمذاكرة لا تأتي إلا بخير، فقلت له : لينصت لنا سيدنا حتى نأتي على آخر ما يسنح، فإنني أريد أن أباحث سيدي احمد، لعلني استثير منه بالمباحثة ما ينطوي عليه من التحقيق وذلك هو المقصود بالمراجعة فقط،

فقال : قولا، فإنني أسمع.

فقلت للفقيه : إنني أمس لم أفهم كثيرا من تلك المذاكرة، ما هو سبب ما عيب علي، حين دعوت إنسانا غير مؤمن بوجود الخالق إلى إجالة بصره وعقله في نفسه، وفي الذي حواليه، مما في السماء وما في الأرض لعله يهتدى من عظمة ما يرى في نظامه، وفي تمشيه على وثيرة واحدة في الحياة، سكون فحركة، حياة فموت، وجود ففناء، طلوع فغروب، عجيبا غريبا، فيدرك انه لابد له من مسكن ومحرك ومحي ومميت، وموجود ومفن ومطلع ومغرب، على نمط ما قال الأعرابي : البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، والسماء ذات الأبراج، والأرض ذات الفجاج، إلا تدل على اللطيف الخبير، وقوله تعالى : (أو لم يتفكروا في أنفسهم) وقوله : وفي أنفسكم أفلا تبصرون. وقوله أيضا: (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء). وقوله أيضا: أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون، ولقد علمتم النشأة الأولى أفلا تتذكرون، أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون أنا لمغرمون بل نحن محرومون، أفرايتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزل أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون، أفرايتم النار التي تورون انتم أنشاتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين). إلى آخرها من غالب ءايات القرآن التي كان موضوعها بعث العقل من غفلته ليعتبر ويستبصر، فكم ءاية فيها : (لقوم يعقلون) (لقوم يتفكرون) (أن في ذلك لآيات للمتوسمين) أو لا يرى قوله تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)، فإنه

أتبع ذلك بقوله: (فذكر إنما أنت مذكر)، مما يدل أعظم دلالة أن التذكير يكون بان تأمر بإجالة العقل في الكائنات، كما قال أيضا: (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)، فما هو البرهان إلا حجة العقل.

فقال الفقيه: حاشا حاشا أن نذهب إلى إنكار هذا، وإنما مقصودنا أن الإنسان إذا ترك وعقله، فانه يقع في عبادة مثل الشمس والقمر، وقد علمنا أن كثيرين من الكفار الماضين، كانوا يعبدون الشمس، ولا ريب انه لم يؤدهم على ذلك إلا النظر المجرد عن الشرع.

فقلت: أن هناك فرقا بين إنسان كان بين يديك أن تهديه سواء الصراط بالتدريج، فتقول له: استعمل عقلك في الكون لتستخرج منه أصل التوحيد، فان عقله لا يؤديه بتوفيق الله إلا إلى التوحيد ثم يستنم الباقي بسهولة، وبين إنسان غفل، أعمى البصيرة، تمثلت له عظمة مثل الشمس فوقف معها، ووقوفه معها يدل على انه أعمى البصيرة، لم يتأمل العقلاء، بل كان كالأطفال الذين تلهيهم المظاهر البراقة عن الحقائق، وإلا لعرف أن الشمس تتأثر بغيرها كما يتأثر كل ما يشاهد في السماء والأرض بغيره، ولولا كمه بصيرته لخرج بالنتيجة التي خرج بمثلها إبراهيم عليه السلام، وحماد عالم ثاقب الفكر، ألف الاعتبار، فلا تؤدي إجالة العقل من مثله إلا إلى المراد منه.

فقال : أو مثل حماد يقال فيه عالم، فهل قرأ النحو والفقه والبيان والأصول والمنطق، حتى يقال فيه عالم ؟ فما أسهل العالمية إذن، حين صارت تناط بكل من يرتطن لغة غير العربية التي هي لغة الجنة، وأيضا، وان مثل حماد الذي وصفته بالعقل، إذا أردت إن تدره وعقله، ممن يصيرون إلى التجسيم والعياذ بالله، فكيف يدرك نزاهة الله الموجد للكائنات-بعد أن نفرض انه يدرك بعقله

وجود الله- عن ذات مثل ذوات غيره، وعن زمان ومكان، وعن ولد وصاحبة، مما يجب أن يتنزه عنه الله تعالى، فهل تدرك النزاهة عن ذلك بالعقل المجرد، فضلا عن إدراك وجوب اتصاف الله بالكلام والسمع والبصر التي هي من السمعيات فقط، ولو كنت قرأت احد المتون معه، لعرف التوحيد دفعة واحدة، وإلا فما يؤمن أن يسبق التجسيم ومثله إلى عقله فيصعب إزالة أثره منه، وهذا هو مناط اعترافنا عليك أمس، وعلاوة على ذلك يحتاج إلى الحجج والبراهين العظيمة التي سهرت في إدراكها عيون الفحول، حتى حرروها، وجلها في أدلة التأويل لما يتبادر منه التجسيم، كالرحمن على العرش استوى، واصنع الفلك بأعيننا، يد الله فوق أيديهم، وحيث نزول الله في الثلث الأخير من الليل، فكيف يدرك حماد بعقله فقط، يا هذا، مذهب الأمام الاشعري والجويني، والرازي، والغزالي، وأمثالهم من فحول المتكلمين، فهيهات، أبعدت النجعة، واخطأت السبيل، فتركت الفقيه حتى افرغ ما في جعبته من هذا الكلام الذي قفز فيه من مبحث كنا فيه إلى مبحث آخر غير ما نحن فيه، وقد عذرته لأنني اعلم كثيرين لا يألفون النظام في المناظرات، فبينما أنت معهم في المشرق، إذا بهم قفزوا إلى المغرب، ولذلك أغضبت عن غالب ما قال. فقلت له :

إن حماد إنما يهديه عقله إلى وجود الخالق للكون فقط، وأما ما وراء ذلك من الذي لابد منه فما أسهل أن يقتنع به أن حصل له أصل التوحيد الذي هو وجود الخالق جل وعلا، وأما ما لا يدركه العقل أصلا أو لا يدركه مستقلا فانه إمام، وسيتعلمه حماد بسرعة، حين يقتنع بأصل الأديان، فمتى اقتنع لان للعالم خالق فإننا نعرض عليه أصول الدين الإسلامي التي ينطوي من بينها ما يستنم به توحيده، فلا تكون من المستعجلين، فان الله يعين على الرفق ما لا يعين على الخرق، والتؤدة خصلة يحبها الله ورسوله، وما ذكر لنا الله انه خلق الكون

في ستة أيام إلا لترسخ التؤدة في أخلاقنا، فننتفع بها في كل أعمالنا، والانتقال عن معتقد إلى معتقد آخر من أصعب شيء على الإنسان إلا أن يوفقه الله. وتأليف القلوب ممن يرجى إسلامهم مشروع بالكلام اللين وإطالة الرسن، بله المال الذي ينبغي أن يدفع له. ومثل حماد، يجب على المشفق عليه الراجي له خيرا، أن يستنفد كل جهوده في استنقاذه من الورطة التي ارتطم فيها المسكين كما يجب عليه سلوك طريقة سهلة لا تنفير فيها، فقد أوصى صلى الله عليه وسلم معادا ورفقه لما بعثهما إلى اليمن بقوله : بثرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، هذا صفوان احد عظماء قريش قد استمهل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح قليلا في شان الإسلام، فأمهله أكثر مما كان ينتظر، تأليفا له وطمأنة لخاطره، وتسكينا للروعة التي أحدثها فيه انهزام قومه أمام جيش الإسلام، وبمثل هذا يجب معاملة أمثال حماد، وإلا فلو خاشنهم المسلمون لابتعدوا عنهم فهلكوا في الهالكين، وأما ما ذكرته من التأويل للمتشابه، فانه وان كان إنما جاء هنا مستطردا، اعن لك أن التأويل ليس بمتعين كما يظهر من كلامك آنفا، فان التفويض أسهل واقرب لمن خالطت بشاشة الإيمان قلبه، فأين أنت من العبارة الرائجة من أن مذهب السلف اسلم، وهو التفويض ؟ ولا ريب أننا لا ننشد إلا السلامة دائما، وأما التأويل، فكل من ذكرتهم ممن كانوا أساطينه، الاشعري، والجويني، والرازي، والغزالي، صرحوا بأنهم رجعوا عنه إلى مذهب السلف الأسلم.

فلم أكد أقول هذا حتى ثار الفقيه في وجهي ثورة تنافى أدب المناظرة، فقال إن هذا لم يقل به أحد! فمذهب الاشعري وهؤلاء، هو التأويل، وهو المذهب الذي قالوا فيه انه اعلم، كيف يرجع الاشعري عن هذا المذهب، وهو الذي أشاد به حتى نسب له؟ كما ينسب المذهب الفقهي لمالك.

فقلت بخفض صوت وتبسم وسكون ورفق: انتظرني يا سيدي هنيهة. فأتيت من الخزانة بكتاب، ففتحت (الإبانة) التي كتبها الاشعري بيده فإذا فيها: انه لم يكن يؤول إلا مضطرا، دفعا لشبه مناوئيه من أهل العقائد الزائغة، وإلا فانه لا يعتقد إلا مثل اعتقاد السلف، احمد بن حنبل، وأمثاله.

ثم فتحت كتاب (إلجام العوام)، في علم الكلام، وهو آخر ما ألفه الغزالي، فإذا فيه حث على مذهب السلف ومن تبعهم. ثم فتحت كتاب (النبلاء) للمذهبي، فإذا فيه في ترجمة الفخر الرازي قوله : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رايتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن؛ اقرأ في الإثبات : (الرحمن على العرش استوى) (إليه يصعد الكلم الطيب) واقرا في النفي. (ليس كمثله شيء)، ومن حرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

ثم قرأت أيضا في ترجمة إمام الحرمين الجويني من ذلك الكتاب أنه قال: والذي نرتضيه رأيا، وندين الله به عقدا، إتباع سلف الأمة. ثم التفت إلى صاحبي فرايته خجلا، فأردت أن اكشف عنه بعض ما هو فيه، فقلت له: اعذرني يا سيدي، فأنني قليل البضاعة في الاطلاع، وإنما وقع مصادفة أن اطلعت على هذه النقول قريبا، ولذلك استحضرتها الآن، وإلا فان لي ذاكرة منخرمة.

فقال الشيخ: إن الصوفية يترجح عندهم من جهة الكشف، أن مذهب السلف أحق. فقلت: الحقيقة أن كلا المذهبين صحيح، وإنما ينبغي أن لا يصار إلى التأويل إلا عند الحاجة، والمجاز هو المسوغ للتأويل، وهو كثير، إن لم يكن، غالب اللغة العربية، فمذهب التأويل لا نأباه وان كنا نفضل عليه التفويض، وإذ ذاك استطاع الفقيه أن يستجمع قوته بعد تلك الصدمة العنيفة. فقال :

إن في حاشيتي كلاما طويلا حول هذا الموضوع، ويا ليت إنها معي لأتلو منها على مسامع هذا الجهيد، ومما سقته هناك ما لا أزال استحضره من كلام ابن دقيق العبدي في هذا المقام، وهو :(إن التأويل إن كان قريبا على ما يقتضيه لسان العرب، وتفهمه في مخاطباتهم، لا تتكره ولا تبدع قائله، وان كان بعيدا توقفنا عنه واستبعدناه ورجعنا إلى القاعدة في الإيمان بمعناه مع التنزيه).

وقد حكيت هناك في حاشية، مثل هذا عن عز الدين بن عبد السلام.

فقلت للفقيه : هذا هو الحق الذي لا ينبغي المصير إلا إليه، وياليتني حظيت بمطالعة تلك الحاشية الطافحة بأمثال هذه النقول العليا، فاسترجع وجهه وسامته، وقال ستراها في فرصة أن شاء الله، ولو كنت اعلم أن سيدي في هذه المكانة لصاحبتها معي-كلمة تملقني بها، مقابلة للكلمة التي سكنت بها جأشه- فقلت له: الآن يا سادتي قد بينت لكم مرادي في الكيفية التي سلكنها مع حماد، فان لم توافقها عليها استبدلناها بغيرها.

فبادر الفقيه فقال : نوليك من ذلك ما توليت، يشرط أن تتولى أنت إتمام مناظرته في المؤتمر الآتي، ثم إن نجحت في طريقتك، فيها ونعمت، ثم التقت إلى الشيخ الصوفي فقال له : أو ليس هذا هو الواجب؟

فقال أي والله، فحين زعم انه لا ينقاد أمثاله إلا بمثل هذا الأسلوب، فلبثوا بنفسه الأمر إلى آخره، وحسبنا نحن أن نكون شهودا.

كذلك خرجت من هذه المناظرة الجديدة بغنم عظيم، وقد كنت أخاف كثيرا أن يفسد هذان السيدان الخطة التي سرت عليها مع حماد، أن حاولوا أن يميلوا به عن صراطها السوي، والآن بت آمنا من هذه الناحية، وسأزف هذه لإبراهيم الآن.

كانت الساعة العاشرة، فاستأذنت السيدين في الخروج لأرتاض قليلا، فتركت الشيخ يؤدي صلاة الضحى، وقد شغل عنها بما نحن فيه، فحين أقبلت على متجر إبراهيم متهلل الأسارير بأردني بقوله :

كيف الجلسة؟ ألم تمثلوا فيها دور الملاكمين؟

فقلت له: ليس هناك إلا كل خير ونجاح، فقد فلج القدح فيها، وظهر الحق في المناظرة لمن يتطلب الحق، ثم تتبعت ذكر ما جرى حتى أتممته. فقال إبراهيم :

لا أرى حمادا إلا سيكون سعيدا، ولا أرى أسرتنا إلا ستحظي عن قريب بمؤمن جديد.

فقلت أن شاء الله بحوله وقوته وتوفيقه.

[7]

**مقدمات المؤتمر**

لما أطل المؤتمر كتب إلي حماد هذه الرسالة:

فاس – مراكش

أعلن إليك أعظم بشارة أوقن أنها تملأ فؤادك سرورا، كما توقن أنت بدورك أنها ملأت فؤادي قبلك غبطة وحبورا، فقد أدتني الدراسة إلى نتيجة لم أكن أنتظرها بهذه السرعة، فقد أمضيت العشرين يوما المنصرمة، في البحث والتنقيب، حتى ثلج صدري إيقان أن هناك قوة عاملة حكيمة تفعل بإرادة، وأن كنت لم أصل إلى ذلك إلا بطريقتك المعبدة الواضحة، فشكرا لك كما هديتني على أقرب طريق موصلة، فقد سهرت في هذه الأسابيع وظللت في تفكيرات طويلة، وبين موازنة ما ينتج لي عنها، حتى أيقنت أنني لم أكن أسير الوهم، ولا منقادا بخيال الشعور، فالعجيب أنني لم أكد اهتدي إلى أول بأرق مما أدركت، حتى أحسست كان ما أدركته يتراءى لي غير مجهول لدي، بل مأنوس مألوفا، وأن كنت قبل لا اهتبل به، ولا أعده في دائرة الموجودات، فما أعظم غفلات الإنسان أحيانا.

راجعت ما أمكنني من حجج الذين ينفون وجود هذه القوة الطبيعي، ومن براهين الذين يثبتونها ويسمونها النواميس الطبيعية، فوجدت عين ما توصلت إليه بطريقتك، هو عين ما يقولون، بل ما كانوا سلكوا إلا مثل طريقتك عينها إلى إدراك ما أدركوا، فحمدت الله على موافقة فلاسفة جبابرة في تعلقهم وتثبتهم وفي ابتعادهم عن مجالات الأوهام، فما ظنك بمثل ريتان

وباسكال وجول سيمون وكثيرين نظرائهم فيا لسعادتي وهنائي حين وقعت على أعظم اكتشاف بالنسبة إلى مثلي الذي أمضى صفوة شبابه فيما أمضاها فيه.

أتعلم أنني أتذوق لذة أخرى صارت تنسيني شيئا فشيئا مباهج الحياة وملذاتها؟ فيالعجائب الطبيعة وبالقوتها الخارقة، بل بالنواميسها الخارقة - فقد حبب إلي منذ اعتنقت هذا المذهب أن استبدل عبارة القوة الطبيعية، بالنواميس الطبيعة، توحيدا للتعبير عن مذهب واحد.

وأخيرا ارفع إليك تشكراتي الحارة، واضع بين يديك سؤالا عرض لي بعد أن أقررت بأن ما يدبر هذا الكون له علم وحكمة وقوة وإدارة، وهو: كيف هذه النواميس الطبيعية؟ وهل هي واحدة أو جماعة مثقفة أتم اتفاق أبدي تدير هذا العالم؟ افتح لي بفضل باب هذا المبحث لعلني أتتبع فيه دراستي، فقد أصبحت نشوان بسلافة البحث، حتى كنت أتهرب من سماري وحبائبي وميادين اللهو التي ما كنت أتصور قط تخلفا عنها، ولكن يحدث من أمور أمور.

دمت مصونا للإفادات الدائمة.

حماد

**الجواب**

أهنئك من أعماق فؤادي تهنئة حارة حين انتصرت هذا الانتصار الباهر، ومن كان في مثل ذكائك وثقوب ذهنك وإنصافك واعتمادك على ترقية نفسك بنفسك، يكون دائما النجاح حليفك، والفلاح لزيمه.

زال عنك الشك، وانقشع الضباب أمام عينيك، فما كان الإنسان ليدوم شكه فيما يشعر به شعورا لا مراء فيه، ويحس به في ذاته وفي كل ما يحيط به من كل ما تجول فيه مدارك عقله وحواسه، إلا ريثما ينتبه إليه، فإذا به حقيقة واقعة بلا ريب، فإن لم يلمسه بيده لمسا، فإنه يشعر به شعورا، فغن أرواحنا لا نلمسها بأيدينا إنما نشعر بها، ومع ذلك لا شك بعثورنا في أنها موجودة في ابدأننا وجودا محققا لا يقبل أدنى ريب. تملصت من التقليد ثم اعتمدت على نفسك فاستطعت أن تثق لنفسك طريقا لم يكن ليستطيع الإهداء إليه أسرى التقليد، والمصفدون بالأوهام والوساوس، ممن واعتسافا.

كنت تسدر في غلوائك، فصدئت مراءة فكرك ما صدئت، فلما إليها بالعمل المجد، ومسحت صفحتها مسحة واحدة، فإذا بها مشرقة مصقولة، ترسم فيها الحقائق كما هي غير مغلقة ولا مبهرجة.

تذوقت الشربة الأولى من كأس العمل والبحث، فإذا بك تنسى مباهج الحياة، ومناغاة الغواني، وملذات السمر في اللهو، فصرت تتنكر لمعاشريك، وتود لو أنهم ساروا في واد، وتركوك في واد آخر، وكذلك لذة المعارف، وخمرة الوجدان، فمن ذاقها يعلن الملأ أنه ما ذاق قط مثلها، قال اليهوبوريت:

(إني لم أشعر في حياتي قط بسورة الفخر، كما شعرت حين فهمت للمرة الأولى معاني الخمسة عشر بيتا الأولى من إلياذة هوميروس).

وأما سؤالك الذي وجهته، فسأجيبك عنه بعد أن تدرس ما وصلت إليه، تحت سماء ما يقوله علماء الأرواح (اسبر تزم) ثم أن أعلنت إلى النتيجة المتحصلة لك، رجعنا على موضوع سؤالك، فلا تقتصر على أمثال كلام (ريتان) ومن ذكرتهم، ل لا تكتفي أيضا بمدارسة ما عند (كانت) الألماني ونظرائه، فإن ذلك

لا يكفي وحده، بل أحب منك أن تلم بما عند الذين يروجون دائما بأبحاثهم فيما وراء المادة، ويقولون أنهم حصلوا بذلك على نتيجة هائلة، فقد أعلنوا أن هناك معنا عوالم عظيمة حية مدركة، استطاعوا أن يتحادثوا معها بواسطة من يصلحون للتوسط، وهذا المذهب الروحاني جديد في عالم الأبحاث عند علماء الغرب الذين كانوا قبله كافرون بكل ما تقوله الأديان، فلما وصلوا إلى ما وصلوا إليه بأبحاثهم واستقراءاتهم واكتشافاتهم، رجعوا يحملون إلى العالم معلومات عظيمة هزت الأفكار هزا، وأقامت آلافا من علماء المادة وأقعدتهم، فاكب كل واحد على البحث في ذلك على حدة، ثم زاد العجب عند الناس هناك قاطبة، إعلانات متتابعة من البحائين الجدد، بأن تلك العوالم حقائق لا سبيل إلى أي شك فيها، فهكذا صار غالب الماديين الذين جلبوا على الإنصاف، يتراجعون عن فكرتهم القديمة المؤسسة على أن لا موجود إلا ما يحسون به فقط، فهناك كائنات جديدة لا ترى ولا تلمس، توجد إزاء المادة وجودا لا مراء فيه، هذه المباحث لم تبدأ إلا من أواسط القرن التاسع عشر فقط ثم لم تنشب أن بلغت من اتساع ندواتها وكثرة مجلاتها اتساعا عظيما، ومثلك الذي ذاق لذة البحث، وصار يتطلب الكمال لنفسه، وأبى إلا أن يستولي على المكانة التي تأهل لها، لا ينبغي له وهو يدرس الموضوع الذي يدرسه أن يغفل دراسة هذا المذهب الذي يحكون عنه عجائب وغرائب، يبعد في العقل أن تصدر كلها عن تمويه وتزييف وشعوذة، ثم لا يغيبن عنك أن مستقبل نتيجة دراستك المتقدمة، متوقف على ما يتحصل لك من دراسة مذهب الروحانيين، ثم إذا أعلنت لي ما حصلت عليه، إلى النظر حول سؤالك،

دمت للرقي والتفوق والنشاط في المباحث.

أخوك : فلان.

بعد أيام قليلة توصلت منه بهذه الرسالة :

كنت أحسبني في العالم، ورأى لي مقاما في صدور الرجال العقلاء، ومكانة بين العلماء النبهاء، حتى ادعيت أمامك يوما ما عبقرية استطيع أن استبدل بها أمة من حال إلى حال، إلا أنني الآن وقد صرت أضع يدي ساعة فساعة على براهين كثيرة، تدل على تراكم جهلي وعمه يصيرني، من أجل غرقي فيما يغرق فيه السادرون في الهواء، المتتبعون لمواقع اللذات، اقدر أن أصرح بغير ما كنت أصرح به أمس على الملأ :

من أين كنت أعلم أن هناك عالما آخر غير ما تقع عليه الحواس، ويتصل بحياتنا المادية؟ فهل كنت قط على استعداد لاستماع هذه الأفكار التي ما كنت اسمي أمثالها إلا خرافات وشعوذة وحمقا كثيفا، لا يصيخ إليها إلا النوكى والمستضعفون والأغبياء؟ فانزل بنفسي على الإصاخة إليها فضلا عن أن اعتقد فيها صحة ما، فأتفرغ لدراستها دراسة توديني على الاعتقاد بها؟

وأما اليوم فقط طارت تلك العبقرية شعاعا، وتمثلت لي الحقائق، فما أجهلني وأغباني حين كنت أصعر خدي عن كل من أعلم منهم أنهم يقولون إنهم يقولون بما وراء المادة.

حييت أيها البـاحث، فأنت حقا فتاح الأبواب، ومزيل الريب، ومزحزح الغشاوة عن البصائر، فلولا البحث لما أدركت أمس أن لهذا العالم نواميس تديره عن تعقل وحكمة، ولولا ثانيا لما خطوت هذه الخطوة الثانية التي وسعت دائرة علمي، وجعلتني اطفح بنشوة الانتصار، وخمرة المعارف.

كنت أظن أن رأسي متوج بتاج العلوم كلها، يوم توصلت بالدكتوراه، كما كنت أرى أنني حصلت على أعظم أمنية وأكمل لذة يوم أعطيت لنفسي كل

سؤالها، وكلت لها في آماها ومستمتعاتها من مباهج الشهوات البدنية بالمكيال الأوفى، إلا أنني اليوم أدركت مقدار غروري بتلك الدكتوراه، التي ما جعلت إزائي إلا دائرة غير واسعة، كما أدركت أن اللذة التي هي اللذة، لا توجد إلا في البحوث الفاتحة أمامك عوالم فعوالم، فتنير أمامك ما كان مظلما، وتفتح ما كان دونه قبل موصدا، وتزيل عنك غباوات الجهالات، كذلك أنا الآن يا سيدي، فقد أكببت على المذهب الروحاني وحضرت مجتمعات شتى لأربابه، وأفرغت جهدي في الاحتياطات كما كان يفعله قبلي كثيرون، ثم خرجت بمثل النتيجة التي خرجوا بها، كما طالعته في عبارات الجماء الفقير منهم.

إذن، لم يكن العالم المادي وحده كل ما في الوجود، ولم يكن أناء آدم وحدهم من الأحياء هم الذين هم الذين يحتوي عليهم هذا الوجود، فهناك عالم آخر يشعر كما يشعر بنو آدم، يسمعون فيجيبون، ومتى تقمصوا ذواتا من ذوات الوسطاء أمامنا، يأتون بمعلومات وعلوم وأفكار وأخبار غيبية نتحقق ونتيقن أن الوسيط منها صفر بطبيعته التي نعرفه بها، هذا ما أدركته غاية الإدراك في مجتمعات شتى حضرتها، ثم كاد يكون هناك إجماع ممن يعتنون بهذه الناحية على هذه النتيجة.

لكن، أهذه أرواح موتى من بني آدم حقا؟ وليس يمكن أن تكذب تلك الأرواح في ادعائها ذلك، كما ثبت كذبها في بعض ما تقوله على السنة الوسطاء؟ أما نحن فلا يهمنا ألان إلا الإيقان بأن هناك مخلوقات حية تشعر كشعورنا، وتسبح في الأجواء وتمرح، ولم تحبسها الأجساد أمثالنا، فبحسبنا هذا الآن، وان كان العقل لا يزال يتطلع إلى ماهية تلك الكائنات، أعندك بها علم جديد يا سيدي فتكون علينا به من المتفضلين؟ دمت للعلم والإفادة لأخيك.

الآن استكملت الحلقة الأولى من دراستك حين أدركت شيئين اثنين، أولهما: كون هذا العالم له موجد ومدبر حكيم، والثاني أن هناك عوالم أخرى لا ترى، وان هناك كائنات أخرى لها مثل شعورنا، وربما كان شعورها أوسع من شعورنا.

الآن يمكن لي أن أقول لك : إن في رسالتك الأولى بعض خلط بين مذهب الطبيعيين الذين لا يقولون إلا بالمادة فقط، وجعلوا لها موجدا من النواميس التي قالوا : أنها توجد بالتسلسل شيئا من شيء، واس مذهبهم قدم العالم، ولا يكادون يقرون بموجد على الصفة الآتية، وبين مذهب الذين أدركوا أن للعالم موجدا هو الذي ابتدأ إيجاده من عدم، وهؤلاء هم الذين يقولون بالعالم الآخر الذي يسمونه عالم الأرواح، فأداهم الاعتقاد بوجود الأرواح إلى عوالم أخرى زيادة على تلك الكائنات التي ذكرت أنك اعتقدت وجودها وأدركته ببحثك، بل زادوا واقروا بحياة أخرى وراء هذه. ولا تنس ما كنت قلته لي يوما من أنهم وقعوا في مثل ما فروا منه حين اعرضوا عن الأديان، وأخال انك ترمي إلى كل هذا، وان أردنا أن نعرف مذهبهم بنصه، فلنسمع لما بقوله جول سيمون : (كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها، أما أصوله فهي الاعتماد بوجود اله قادر على كل شيء ولا يغيره شيء، خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة، ووجود حياة أخرى تودي لنأكل وعود هذه الحياة، وتكافئ المظالم بالجزاء الأوفى).

وأوضح منه ما قاله الفيلسوف كارو: (قواعد الديانة الطبيعية الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات واعتنى بها، وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنساني، ووجود روح في جسم الإنسان متصفة بالذكاء والحرية،

وقد حبست في هذا الجسم المادي أمد لتبتلي فيه، هذه الروح يمكنها بإرادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء، كما يمكنها أن تسلفه باستثنائها بالمادة الصماء. والاعتماد المطلق برفعة التعقل على الإحساس، وإعطاء الأخلاق الفاضلة اسمها الحقيقي وهو الامتحان والابتلاء، وتحديد غرضها الحقيقي، وهو التخلص التدريجي للنفس من علائق الجسم، والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة، وأخيرا الاعتراف بقانون الترقي، ولكن بدون فصل رقي الإنسان في مدارج السعادة من العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة).

فهذه هي ديانة الفلاسفة الذين ذكرت أنك وصلت بدراستك إلى ما وصلوا إليـه، فأن وصلت حقا إلى مذهبهم فينبغي لك أن تعبر منذ الآن على ما كنت تسميه أولا القوة الفاعلة، ثم تركت تلك التسمية فسميته النواميس الطبيعية-وقد قلت أن الحامل لك هو أن تعبر كما يعبر أهل المذهب الذي اخترته - وإذ ظهر لنا الآن منك أنك على مذهب الروحانيين، فإننا ننتظر منك أن لا تعبر لعد عن موجد هذا العالم إلا بالله، كما يعبر به أهللا مذهبك الذي اخترته وأدتك نتيجة دراستك إلى كونه هو صحيح، ثم لا بأس لأن تقول كما يقول هؤلاء. إن للعالم الاها أوجده وسيره بنواميس طبيعية، فتكون نسبتك تسيير العالم إلى الله نسبة حقيقية، ثم نعرف بعد أن نوقن اعتقادك لذلك، في قولك ثانيا : إن العالم تسيره النواميس الطبيعية- أن قلت ذلك في تعبير آخر- إن قولك الثاني إنما هو مجاز، وأن التعبير الأول هو الحقيقة.

على أنني أنـتظر منك جوابا: هل ارتضيت حقا كل ما ذكره أصحاب هذه الديانة الطبيعية، أو في عقيدتهم هذه ما لا يزال أمامك محتاجا إلى دراسة جديدة؟

أكـتب إلـي بعجل، فـإن وقت المؤتمر قد أظل، ونحن نريد أن نفرغ من هذه الأبحاث قبل أن ندخل فيه لتكون كأسس مسلمة للأبحاث التي نستقبلها.

بقيت في نهج التقدم إلى الأمام محفوفا بالسعادة والتوفيق، مأمونا من العثرات والخطأ.

أخوك فلان

ولم أنتظر إلا ريثما ذهب البريد، إذا بي توصلت بما يلي :

(في كل يوم تأتيني بجديد، وتدرس بين عباراتك ما أقف إزاءه وقفة حيرة جديدة، كأنك تستجرني عمدا من حيث لا اشعر إلى غاية تقصد بي إليها، وتنتهي بي كما تريد إليها على حالة تنويها مني. ها أنت ذا وضعت أمامي ديانة جديدة بكل بنودها كأن تريد أن تغتنم فرصة إيقاني بوجود عالم أخر وراء المادة، فتقلدني ذلك المذهب بكل ما تحتوي عليه بنوده برمتها. مهلا عليك، فغنني لا أزال على شرطي، فلا أقبل إلا ما وصلت إليه دراستي، وأدرك كنهه عقلي، فإنني ابن القرن العشرين، وربيب المدنية العجيبة التي لا تعرف إلا العلم وحده، فلا تتقدم ولا تميل ميمنة أو ميرة إلا والعلم قائدها، والفكر سائقها، فهل تظن كل هذه الاختراعات والاكتشافات التي تدين لها المدنية ظهرت إلا بالعلم الصحيح الذي يدرك الحقائق ولا يكتفي بالظواهر من الأشياء فقط؟ فهل تطمع مني أن أتدين بدين لا أعرفه كله؟ نعم أنني اعرف أن لهذا العالم موجدا حكيما عالما قادرا، ولكن لم أدرك بعد أنه متميز

عن العوالم الكونية وعن النوع الإنساني - كما في كلام كارو - كما لم أدرك أيضا إلى الآن وجود حياة أخرى تؤدي لنا كل وعود هذه الحياة وتكافئ المظالم بالجزاء الأوفى-كما في كلام جول سيمون- نعم أن إطلاق الله على ذلك الموجد للكون لا بأس به، لأن العبارات المختلفة لا تغير الحقائق، أنما هي اصطلاحات مختلفة، وللتنازل على إداراتك، ولتكرمة المذهب الروحاني الذي أعجبت بمباحث الفلاسفة العظام الذين أسسوه، لا أطلق بعد اليوم على ذلك الموجد إلا الله، فليبارك الله في عقولنا التي هي وحدها أمامنا وقدوتنا إلى الرقي.

وبعد فأين جواب السؤال، أنسيته أم لا أزال دون المكانة التي تؤهلني لاستماعه ؟ فغنه لمبحث لا يزال عقلي يحوم حوله، فلا أدري كيف فعل هؤلاء الفلاسفة الطبيعيون الروحيون، حتى أدركوا أن الله متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنساني.

هذا وإن ظهر لك أن تمر بي في طريقك إلى المؤتمر، لأقدم إليك احد أصحابي النبغاء، فإنه في شرق إلى التعرف بك، فأعلمني لأكون في انتظارك.

حماد.

**الجواب**

اتئد سدد الله خطاك، ولا تتهم بهذه السرعة ذلك الطالع السعيد الذي أشرف في سمائك، فحاول أن يميط عنك من الحجب والغياهب والجهالات ما كنت فيه قبل- كما ذكرت في رسالة من رسائلك أن العقل نور جعله الله للإنسان لما أراد أن يجعل في يده مفتاح هذا العالم الذي ما خلقه إلا له، ولا يمتري ذولب في مقدار ما للعقل، ولا فيما أنتجه العقل فيما مضى أو سينتجه

في المستقبل، فالعقل منبع العلم الذي يسير الحضارة ويطير بها شيئا فشيئا إلى عليين.

هذا كله مما أجمع عليه العقلاء، وتضافر على الإشادة به العلماء، إلا أن هذا العقل لا يزيد على الطبيعة التي جبل عليها، فإنما هو كالصبر والسمع، فإنهما وان امتدا ما امتدا، لابد أن يكون لهما حد، فقدر ألان أن المجاهر وغيرها من النظارات المقربة أو المكبرة يزداد تحسين العلم لها إلى قدرت ولكن ألا يكون لمدى البصر بعد ذلك كله حد محدود، وان بلغ بنظارات المراصد ما بلغ؟ بلى، فلا بد أن يصل حدا لا يتجاوزه، فكذلك العقل، فإن له محيطا أوسع من جميع الحواس سعة عظيمة، ربما يؤتي إلى الإنسان بديهة إنها لا تنتهي إلى مدى، والواقع لمن تأمل أدنى تأمل أن له حدا ينتهي إليه ولا يتجاوزه، وفي نفسكم أفلا تبصرون؟ فما هو روحك؟ وما هي حقيقة بصرك؟ وما هو كنه سمعك؟ وما الذي يضمره لك الغد؟ وما الذي يتناجى به جليسك أن رايته غفل لحظة عن الاستماع إليك؟ فمن أين أقبلت إلى هذه الحياة التي أنت فيها الآن؟ أم إلى أين أنت متوجه بعد الموت؟ فقد يقول متعنت ملحد: أنني كما أقبلت من العدم أتوجه بعد الموت إلى العدم أيضا، فنقول له ما هو العدم نفسه؟ بل ما هي حقيقة الوجود؟ فما أقصر وأضأل مجالات العقل أن قيست بما لا يمكن أن يجول فيه العقل، وليس بالعاقل المتبصر المتأمل الحصيف، من لا يجعل هذا من البديهيات عنده، فلا يطلق في كل شيء دعوى عريضة فيزعم أنه سيسبره بمقياس عقله، فإن الله ما فتح للعقل إلا جانب من ظواهر لعض الأشياء فقط، وزوى عنه جوانب أخرى أعظم وأوسع من حقائقها، فهذه الكهرباء وهي أعظم ما اكتشفه الإنسان بعمله فارتقب بها الحضارة، لم يعلم العقل إلا مظاهرها فقط، فهل يعرف (ماركوني) و (إديسون)

وكل علماء الكهرباء من كنهها شيئا؟ وهل أدرك (فرادي) الانكليزي مكتشف المبدأ الأساسي من المحرك الكهربائي من كنهها ولو لمحة الحقيقة؟ أن الكل إزاء حقيقة الكهرباء من الجاهلين.

اكتشف (غليليو) القوة التي تنتج عن المعادلة بين قوة الجرم المدفوع وبين قوة المدفوع به، ولكن هل كان يدرك عقله الجبار الذي ربما كان وحده في صفاء الذهن، في القرن السابع عشر، كنه تلك القوة ؟ فقد اعترف هو بنفسه بأنه لا يدري شيئا من طبيعة القوة أمام الناس.

وكذلك مكتشفو الأصول التي تتركب منها المادة كالهدروجين والازوت والأكسجين وهي تزيد عندهم على التسعين، هل أدركوا حقائق هذه الأصول؟ وهل أدرك مكتشفو ما في نور الشمس من الأطياف المختلفة-ما يمكن منها أن يرى وما لا يمكن أن يرى – ما هي تلك الأطياف؟ وهل أدرك من يقولون أن الذرة هي الأصل الأصيل لكل المخلوقات المدروسة ما هو كنه قلب الذرة؟ وهل أدرك (نيوتن) الانكليزي ما هي الجاذبية التي علل بها انتظام المجموعة الشمسية وغيرها من المجموعات الأخرى ؟

الجواب الحقيقي هو أنهم كلهم لا يجيبون إلا بمثل ما قاله غليلو، فإن كان هذا فيما أدرك العقل بعمله منه بعض الظواهر، فماذا ترى فيما لا تزال ظواهره تستعصى عيه إلى الآن، فغن كل الخطأ التي يخطوها العلماء الباحثون لا تزيدهم إلا الاقتناع بأنهم إزاء عوالم عظيمة مجهولة منهم، لا يكون ما يدركون منه بعض الظواهر، إلا كهباءة صغيرة إزاء السماوات والارضين.

قلت بكل حماسة : إنني لا أقبل إلا ما وصل إلى كنهه أدركي، وفهمه عقلي، فإنني ابن القرن العشرين وربيب المدنية العجيبة التي لا تعرف إلا العلم وحده، الذي يستجلى الحقائق ويدركها ولا يكتفي بالظواهر فقط قلت هذا وأطلقته إطلاقا، ولكن أيتناسب قولك هذا مع أقوال الفلاسفة المنصفين غير

المغترين من أبناء القرن العشرين وممن ربتهم المدنية العجيبة ؟ فقد قال (هوبرت سبنسر) الفيلسوف الانكليزي الذائع الصيت غير ما قلت، حين حلل العلم الإنساني فأحاله إلى درجة العجز المطلق، أمام إدراك كنه أصغر ذرة من ذرات الوجود، وقرر أنه لا يمكننا في الإمام بأشياء الوجود إلا إدراك علاقات بعضها ببعض، وصفاتها الخارجية عن كيانها وكنهها.

وقال أيضا الأستاذ (ايزوليه) الفرنسي : إن علومنا هي الجهل المرتب. وقال بعض البحائين الأمريكانيين : أننا كلما تقدمنا خطوة في اكتشاف أو اختراع، نزداد يقينا بجهلنا الكثيف، وعجزنا الواسع عن إدراك الحقائق كلها، وعن إدراك الكثير من غالب ما يحيط بنا. أو بعد هذه الأقوال وعشرات أمقالها التي لا يزال المنصفون غير المغترين يعلنونها في كل فرصة، بريد الإنسان أن لا يقبل شيئا وان كان يشعر بوجوده، ويحس به، وتدله تجارييه على انه في دائرة الوجود، إلا إذا أدركه بالعقل وعرف حقيقته، وأن كانت فوق مدى العقل، وابعد من مجالاته المحدودة، كلا كلا، فالفلسفة العصرية تقبل الحقائق التي تشعر بها وتحس بها، قبلها العقل أم لا، فقد قال بعض العلماء الذين لا يخضعون إلا للفلسفة العلمية في كلام له حول الأسلوب العلمي العصري وهو يذكر نتائج تطبيقه :

(كانت الفلسفة المدرسية في العصور الوسطى ذهبية، وأما العلم الحديث فتجريبي. كانت الأولى تسجد للعقل البشري المتحرك في دائرة من قيود التسليم بأقوال الأئمة، وأما الثاني فلا يسلم إلا بالحقائق قبلها العقل أو لم يقبلها).

استمعت الآن ما عليه أهل القرن العشرين. والذين تربوا في المدنية العجيبة؟ فهل يتفق كل هذا وما يدل عليه كلامك وأنت تطلقه إطلاقا ؟

لا ريب أنك منى سمعت بأن غالب أهل القرون الوسطى ما كانوا يذهبون في الأرض إلا على أنها مسطحة، تقهقه من عقولهم، وتنسبهم إلى الغواية والضلال والجهل العميق، ولكنك أن تأملت فإنك تعذرهم، لأنهم ما تمشوا إلا على طريقتك هذه، وإليك البيان :

(كان بعضهم مرة في مجمع من أهل عصره، فذكر أن الأرض كرة، فقاومه من حضر، وقالوا كيف يمكن أن تكون كرة مع أن من يسكن في البقعة المقابلة لما نحن فيها-على مذهبك - لا يسقط، أفتجيز عقولنا وتتصور أن نكون معلقين بأرجلنا؟)

أرأيت كيف وقف هؤلاء مع ما يتعقلونه؟ أكانوا إذ ذاك أدركوا الجاذبية التي ما اكتشفها نيوتن إلا بعدد ذلك-أن كانت الجاذبية حقا هي الناموس الذي جعله الله تعالى لإمساك السماوات والأرض- وهل كان العقل يدرك-ولا يزال الحال إلى الآن- وقوف إنسان في بقعة من الكرة الأرضية، ووقوف آخر فيما يقابلها من الوجه الآخر، ثم لا يحكم بعدم سقوط احدهما إلى صوب رجليه، ما لم يكن يتخيل مثل ما يقوله نيوتن ؟ ولا يعلم إلا الله كم ادراكات نظن الآن أننا فيها على الحق إتباعا لما تدركه عقولنا، ثم ينكشف الغد عن كونها غلطا عظيما منا، لان العقل قد يلم به الغلط كما قد يلم بالحواس.

فالحق كل الحق أن العقل له حد محدود تنتهي إليه مداركة، ولهذا أقول لك الآن، وقد آن أن أقول لك : أن الله الذي اوجد هذا العالم لا يمكن إدراكه ألبتة، فكما استعصى على الحواس استعصى أيضا على العقول، وقد اختلط في ادعاء إدراكه كثيرون ممن قبلك فصاروا يظنون ظنونا ويتخرصون تخرصا، ثم انكشف الواقع عن أنهم في غفلة من جهالتهم يعمهون. فإن كنا نحكم بعجزنا

عن إدراك ما بين جنبينا من الحقائق، كحقيقة الروح وغيره، فكيف لا نعجز عن إدراك حقيقة الله الذي نشعر أنه ليس كمثلنا ولا كمثل أي شيء من مخلوقاته، ضرورة انه لو كان يماثل العالم وما فيه، لكان لابد أن يجري عليه ما يجري على العالم من التغير ومن الفناء وافتقار إلى غيره، لان من البديهيات أن المثل لابد أن يجري عليه ما يجري على مماثله، فتأمل في هذا حق التأمل، وتبصر واتئد وابتعد عن ميدان الغرور الذين يتولد مكروبه إلا من حماة الحمل، ولهذا ذهب الفلاسفة الروحانيون كما ترى، على إن الله متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنساني فما دمت تحكم لهؤلاء الفلاسفة بان لهم عقول الجبابرة حتى أعجبت بهم، فلا ينبغي لك أن تلقي ما اجمعوا عليه من أول وهلة، بل تضعه في الميزان وتستوعب ما في طوقك من الأمعاء، فإنك ستهتدي إلى الحق عن شاء الله، فغن مثلك الباحث عن الحق حاشا أن يخيب سعيه ويخطئ سهمه، وإنما صولة الباطل في غفلة الحق عنه.

وما قلناه في تنزيه الله عن مشابهة العالم نقول مثله فيما ذهب إليه الروحانيون من وجود حياة أخرى تظهر فيها نتيجة الحياة الأولى، فعن هذه الحياة الزاخرة بالآلام والأحزان والأمراض والاصطدامات، لا يمكن أن تكون نهاية ما تساق إليه كل هذه العوالم التي خلقت إلا للإنسان وحده، زيادة على ما يحس به الإنسان من نفسه من التطاول إلى الكمال دائما-على حين أنه لا كمال في هذه الحياة- وتطلب الكمال شعور عام لا يخلو منه الجهال وأصحاب الرذائل، متى انفكوا من تأثير بيئة الرذيلة، فضلا عن العلماء وأصحاب الفضيلة، بل أن كل إنسان كيفما كان لا يربع في كل آماله وأمنياته وأفعاله-وان كانت مسفة- إلا هذا الكمال، حتى اللصوص والمستهترون باللذة والمتعة ومباهج هذه الدنيا. وإنما غلطوا في باب الكمال وفي تصوره فصاروا

يتعسفون، ولهذا لا يزال كل من يتخبط في الرذائل يحس فينة بعد فينة بدافع باطنه إلى تطلب الكمال من طريقه الحقيقي، طريق الفضيلة والاستقامة، ثم لا ينشب لضعفه أن يجره السيل ثانيا على ما تدفعه غليه ببيئته، وليست له قوة دافعة ولا خلق مكين، يدرا عنه ويكون دونه سياجا.

إذا كان الأمر هكذا-وهو الذي يدل عليه المذهب الروحاني الذي سلك بلا ريب هذه النظرية- فكيف يستبعد انتظار حياة جديدة تكون هي المقصودة من أول وهلة بما فطر عليه الإنسان من حب الكمال، فيكون الكمال كما هو الكمال فيها، وزد على هذا أن ما يستنتجه العقل من مجموع نظراته في هذا العالم، كونه مؤسسا على الحكمة، والحكمة لا تسير إلا مع العدل، ومتى نظر المرء إلى ما يقع كثيرا في هذه الدار من الإنسان الذي يحمله غروره على أن يخرج عن محجة العدل فيظلم المستضعفين، ويدرس بإقدام قوته على بطون أخواته وبني جلدته، ثم يخرج من هذه الحياة وهو لا يزال على هذا الظلم من غير أن يسيطر عليه قانون، فإنه يتبادر إلى ذهنه أن هناك حياة أخرى يجري فيها القانون مجراه إتباعا لنواميس العالم، ونزولا عند الذي تكون بديهة عند ل عاقل، أفيتلاعب الجبابرة بالمستضعفين ثم يمضون من غير مؤاخذة أصلا ؟ أيمكن هذا في العقل ؟ فغن كان هذا صحيحا فالعالم حينئذ ليس مؤسسا على الحكمة التي يزعم العقل انه أدركها من كل حركاته.

وكذلك متى نظر العاقل أيضا إلى الذين سلكوا طريق الفضيلة، وحافظوا على الاستقامة في كل حياتهم هذه، وخم يلاقون في ذلك ما يلاقون، فصابروا حتى لفظوا نفسهم الأخير، فخرجوا من هذه الحياة من غير أن ينالوا جزاء عملهم، فإنه كذلك يتبادر إلى بصيرته أن هناك حياة أخرى فيها جزاء للمحسنين.

لاشك أن أولئك الفلاسفة سلكوا هذه المحجة البيضاء حتى استنتجوا ما أعلنوه في بنود ديانتهم التي اعتنقوها، فحكموا بان هناك حياة أخرى تؤدي كل وعود هذه الحياة، وتكافئ المظالم بالجزاء الأوفى.

فالآن يا أخي حماد أمعن في كل هذا إمعانا، وتبصر تبصر من لا يتهم غيره بالسداجة والغباوة، بل تبصر من يقدر غيره قدره من غير أن يقلده، ولا أن يحاول أن يتبعه إتباع الأعمى، فابحث، فالحقيقة بنت البحث، واستعن بشعورك وإحساسك، كما تستعين يعقل وبعلمك وبتجاربيك في الخمس والأربعين سنة التي قطعتها شوطا شوطا، ولعلك تهتدي كما اهتدى فلاسفتك الروحانيون، ولا تنس أن تراجع كل ما يقوله الروحانيون عن تلك الأرواح، فإن في كثير من ذلك القصص تعرضا لمدى العقل وللحياة الآخرة فالله يسددك ويأخذ بيدك إلى سواء السبيل.

وكنفي انتظاري فغنني إليك لفي أشواق، وسلم مني سلفا على ذلك النابغة.

أخوك فلان.

## [8]

نزلت بالدكتور حماد، فوجدت على منضدته، عشرات من الكتب، فرحب بي ترحيبا أحسست به ينبعث من أعماق صدره، وصار يعلن إلي في كل فرصة ما يزعم انه مدين لي به قال :

إن تغييرا عظيما دخل في حياته، فانقلب به عاداته، وانعكست به أفكاره، فهو الآن غيره يوم الزيارة الأولى.

فكنت أجيبه بأن الفضل حقيقة لله وحده، ولهمته الطموح، ونشاطه في البحث، ولبراءته من الغرور والغطرسة وعدم الإنصاف، فبهذه الثلاث يحرم كثيرون من شبابنا مما حصل عليه الآن حماد.

ثم لم أبطئ كثيرا بعد دخولي إلى الدار حتى دخل علينا شاب مجلب مطربش وعليه الزي المعهود من الشبان الفاسيين أو الرباطيين الذين تنقفوا بالثقافتين الأهلية والغربية، فلهم شهادة القرويين، كما لهم شهادة أخرى في اللغة الأجنبية وعلومها، فقدمه إلى حماد باسم فلان بنيس، كما قدمني إليه وقال له : أن هذا هو الذي تتشوق إلى التعرف به، فإذا بهذا الشاب هو الذي كتب به إلى حماد، ثم كان أول ما جال في صدري أن اعرف ما هو سبب اتصال هذا السيد بحماد، مع أن حالة حماد التي يتملص منها لم أكن لأرضاها لهذا السيد، كما لا ترضاها له طبقته من الشباب الكثير.

وبعد لأي عرفت سبب الاتصال بينهما، فقد كان بنيس حقيقة ممن نبذوا عفاف طبقته، فكان يرتطم في الذي يرتطم فيه حماد، فلم تمنعه جبته ولا طربوشه ولا ثقافته القروية أن يشاطر حمادا في كل ما يجول فيه من

الرذيلة، ومن الاستهتار بالخلاعة ورك الدين والخلق والحشمة، وإذا كان حماد معذورا بسبب بيئته، فكيف يعذر هذا الذي قضى ما قضى في بيئة دينية تمت إلى الفضيلة-ولو اسما- برحم مبلولة، فقلت في نفسي ما قاله من رأى غرابا وحمامة يطيران معا ويقعان معا، فتعجب مليا في الذي وصل بينهما، حتى رآهما معا يعرجان في مشيتهما، فأدرك إذ ذاك سبب المواصلة، وإذا ظهر السبب بطل العجب.

كنت أتعجب من عبارة الرسالة الأخيرة من حماد فان لهجتها تبدلت بسرعة، وتحولت من المنهج الذي كانت عليه سابقاتها، فهل يكون لهذا الخدن يد في ذلك، فلئن كان هذا صحيحا فان حمادا حينئذ في خطر، فلا يبعد أن يستزله هذا الرجل بكيفية شيطانية فتذهب كل أعمالنا في إنقاذه سدى.

جال هذا الفكر في عقلي، ثم تقوى فيه حين اكتشفت من بنيس ما اكتشفت بقرائن الأحوال فقط، فعزمت أن لا أفارق حمادا بعد، لحظة، حتى أوصله إلى المكانة التي أقوده إليها، وأسوقه نحوها بحول الله لا بحولي.

داولت حمادا في غيبة من بنيس، فأدركت منه أن الصحبة بينهما قديمة، ولما كان حماد يعتاد الصراح إلى مدى بعيد، كان يصرح بما كانا قضياه معا في المباهج-وأنا اعرف ما يقصده أمثاله بالمباهج - فقلت له : ومتى اتصل بك أخير بعد اندفاعك هذا الاندفاع الجديد في طريق أبحاثك ؟ فقال: لعل بعض من طرقتي من أصحابنا ورأى مني أعراضا عنه، واشتغالا بما أنا فيه، أخبر بنيس فولج على الدار في الساعة التي توصلت برسالتك المسوقة فيها بنود الديانة التي اجمع عليها الفلاسفة الروحانيون، فلما طالع الرسالة ألقاها إلى وهو يمد شفتيه على احد شقي وجهه ويهز كتفه، ولم يقل لي شيئا، كأنه أراد أن يحترم

شعوري، وان لا يتداخل في أمر يعنيني وحدي قبل أن ادعوه إلى الدخول فيه، فحين ألقى الرسالة باشمئزاز قلت له: ألم يعجبك ما في الرسالة حتى رميتن بها هكذا؟ فقال :

أن هذه أبحاث لا ناقة لي فيها ولا جمل، فقلت له :أو لست مسلما ؟ فقال: بلى! ولكن ولكن ولكن ولكن. وصار يكرر الكلمة كأنه يريد أن يقول شيئا فلم يطاوعه لسانه، ثم ضحك ضحكة هزتني، وقال وهو يمد على يده :

دعني من هذا وقم إلى ليلة انس هيأتها لك خاصة لترى براعة الجمال الأهلي، فقد صرت دائما تزعم أن الأوربيات هن البارعات وحدهن، فقلت له :

أتذوق حقا حلاوة دين، ثم تسترعي أفكارك بعد، أمثال هذه اللذات ؟ فإنني منذ ذقت منذ أيام لذة دين الفلاسفة الروحانيين لا أزال في نشوة عظيمة لم أجد معها بعد داعيا إلى الالتفات إلى نحو ما تقول. أتدري يا صاحبي إنني وقعت في هذه الأيام على اكتشاف عظيم ملأ جوانب صدري عظمة ؟ فقال وهو مكفهر الوجه :

أحسب أن السقطة التي نالتك بعد ملاكمة فلان أمام متجري هي التي كستك خجلا أمام الناس، فانزويت عنهم، خصوصا حين علمت أن تلك الراقصة ضحكت كثيرا على ذقنك، فخاصرت في الليلة الثانية من ألقى عليك درسا قاسيا من القوة والجلد، حين أرسل إليك قبضته العظيمة فخررت بها صعقا.

فقلت له :

كلا وألف كلا، فان الذي فاجأني فغير حياتي لم يكن فيما اعرف عن طريق تلك السقطة ودخلت معه في ملاجة ومحاورة، إلى أن قلت له :

إن عقلي لم يدرك في هذه اللذات التي أمضينا فيها ما أمضينا من شرخ شبيبتنا فائدة، فون في صون الأخلاق والعفاف مروؤة وإبقاء على المال.

فلما رأى بنيس مني الجد، وإنني أعرض إعراضا عما دعاني إليه، وعدني بدراسة الموضوع معي، وصار يظهر لي مما يقول رجحان عقل، وبراهين مقبولة، وهو الذي أيدني في الذي قرأته من الرسالة الأخيرة، فسأله من نابغة له حجي واسع، وذكاء فائق.

أخبرني حماد بكل هذا، فأدركت باستشفاف وتوسم، أن بنيس ممن لا مبدأ لهم، وإن كان يتمتع بالذكاء النادر، فعرفت إنه يقدر أن يحول بين حماد وبين سعادته، وارتأيت أن أحول بينه وبين حماد بكيفية لا يشعر بها الرجلان، فأثنيت على حماد حين تثبت ولم يسلس القياد لبنيس، فتبسم قال : أن مما أنشدني بنيس وهو يحاول أن يستجرني على ما يريد:

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ ربا غفـــــــــورا

تعض نوامة كفيك ممـــــــــا تركت مخافة النار السـرورا

ومما أنشدني أيضا :

خلقت الجمال لنا فتنــة وقلت لنا في الكتـاب اتقون

فأنت جميل تحب الجما ل فكيف عبيدك لا يعتقون

ثم قال أتوافق هذه الأبيات الإسلام حقا ؟ فقلت له وأنا انظر إليه بجد :عد عن هذه النظريات السافلة، فان من يجالس الفلاسفة العظام مثلك، ويرى لنفسه حرمة، لا يفضل له وقت يمضيه في النظر إلى هذه السفاسف، فاقبل

على إتمام ما أنت بصدده بكليتك كما يفعل أعاظم الرجال، فقد قال (شارل ديكنس) وقد سئل عن سر نجاحه.
(إنني ما مددت مرة يدي إلى أمر لا أقدر أن أنصرف إليه بكليتي.)

فانصرف بكليتك على ما أنت بصدده فلعل بين جنبيك كنزا لا يزال مدفوعا على الآن، أن استثمرته وزحزحت عنه ما أعطاه أصبحت من اسعد العالمين.

استعجلته في السفر نحو المؤتمر، وقد عرضت عليه أن نمضي الليلتين الباقيتين دون افتتاح المؤتمر في مكان اخترته ننفرد فيه ليتم لي تمهيد الرجل على ما يراد منه، فلا يلج المؤتمر حتى يكون فيه استعداد تام لقبول ما اعرف انه سيروج فيه.

كذلك فعلنا فانتبذنا عن بنيس من غير أن نتعرض لذره بطرف لسان، ولما استرحنا قلت لحماد : إلى ما وصلت غليه في البحثين الأخيرين اللذين دارت حولهما المراسلة الأخيرة ؟ وهل اقتنعت بأن للعقل مدى لابد أن ينتهي إليه فيقف ولا يتجاوزه؟ فان اقتنعت، ولابد أن مثلك يقتنع لان ذلك من البديهيات، فهل عندك بعد ما تقول في محاولتك إدراك حقيقة الله، وفي إنكار المعاد؟

فقال : إن الحقيقة أن مجالات العقل وان كان يظهر أنها فيحاء متسعة ليست كما يتبادر بادئ بدء، فقد أمنعت وحاولت أن أجد لكلامي الذي كنت قلته أولا دعامة، ولكنني رجعت بخفي حنين، فالإنسان ضعيف، قصير مدى العقل رغم انفه، وأن كان متى أدرك قوة ما، يرى نفسه قطب الكائنات وسيد

العالم ومدير السماء والأرض، وإما مالا ذكر من إدراك حقيقة الله، فأنني اقر لك إنني لا ادري شيئا من تلك الحقيقة، لعجز عقلي وقصور مداركي، وإنما عرفت بما قلته من أن الفلاسفة ما ذهبوا على أن الله متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الإنساني إلا لقاعدة عندهم : أن المثل يتعرض دائما لما يتعرض له مثله، فكل مثلين لابد أن يسيرا على خطة واحدة، فلما وجدوا أن الأكوان تتغير بالوجود والفناء، أيقنوا أن الله الذي منه تغييرها بقدرته، لابد أن يخالفها فلا يتغير، فليس الله إذن مثل الأكوان كلها، فكان متميزا بذلك عن العوالم الكونية وعن النوع الإنساني، وقد ظهر ليس إنني صرت اقتنع شيئا فشيئا بما ذهبوا إليه.

وأما قضية المعاد فإنني بعد أن نظرت وبحثت واستفرغت جهدي، اقتنعت تمام الاقتناع به، لما ذكرته لي في جوانب الأخير، وهي أدلة عقلية بديهية عند ذوي الألباب، وقد تعجبت من نفسي كيف غفلت عنها.

فقلت له : إذن أنت تعتنق الآن مذهب الفلاسفة الروحانيين اعتناق الموقن بأحقيته، فتقبل كل ما ذكره (جول سيمون) و (كارو) في بنود تلك الديانة ؟

فقال نعم، ولي الفخر بأن أدركت ما يدركه أمثال هؤلاء الفلاسفة العظام، وانأ الآن أعجب غاية العجب من نفسي كيف كنت اجهل هذه الديانة العظيمة التي هي تاج المدينة ولباب أبحاث عظماء الفلاسفة، فانا الآن اشعر بأنني اليوم غير أمس، عقلية وإدراكا وسعة نظر، فأين ما لنا فيه ألان من أنظار واسعة تجول فيما وراء المادة الصماء، فأتغلغل حيث تتغلغل أنظار أمثال (جول سيمون) و (كارو)، مما كنت فيه قبل في تلك الحياة التعسة

حياة البطالة واللعب والجري وراء لذات المادة، فباليت كل من كنت معهم غذ ذاك، أدركوا مثل ما أدركت، ليتذوقوا مثل ما أتذوقه الآن في مذهب هؤلاء الفلاسفة الكبار، فلو رأيتني عشية أمس، وأنا أقرا مقالات للفيلسوف (فلامريون) لرأيتني أسبح في سعادة وحبور وهناء لم أكن لأجدها بين المغازلات والمراقصات.

فقلت له لعد محادثات طويلة في لن سعادة المرء لنما هي حقيقة فيما ينبعث من أثناء صدره : الآن وقد أدركنا حقيقة ما أدركه الفلاسفة الغربيون العظام، ينتظرنا بحيث مهم هو من تتمة موضوعنا هذا، فهناك هذه الأديان التي انبعثت من المشرق ثم انتشرت في أرجاء العالمين القديم والجديد، أو لا ترى أن هذا الدين الذي يضم عليه أخوك السيد العربي يديه ضمة البخيل كفيه على درهميه، ينبغي أن يبحث فيه، وأنا وكل أهل هذه الأقطار الشرقية نتدين به، ونرى له أعظم وأكثر مما ترى الآن لديانة الفلاسفة الروحانيين، ولا يخفى عنك أن المؤتمر الذي سينعقد في الغد، سيكون هذا الدين محور أبحاثه.

فقال: أوليس أن المؤتمر إنما نعقده للمناظرة في حالتي أنا وفي حالة أخي السيد العربي آيتهما أليق لهذا العصر؟

فقلت : أو تجهل أن أخاك السيد العربي لم يتكيف إلا بأحوال دينه الذي ارتضاه وجعل في يديه مقاليده، كما انك لم تتكيف كذلك إلا بالأحوال التي اتخذتها لك دينا وارتضيت لك أفعالها، وجعل فيس مبادئها مقاليدك؟

فقال إنني اليوم على مذهب دين عظيم هو لباب البحث العصري، وهو عصارة القرائح الغربية النافذة لما وراء المادة، فكيف انزل بهذا الدين العظيم

على دينكم هذا الخرافي الذي يزخر بالهمج الرعاع الأنذال مفترسي التيوس حية، واكلة الجمر المتوقد والأحناش في الأسواق؟ فهل تعدني عاقلا أن أردت أن انزل بدين الفلاسفة العظام من العلماء الغربيين على أن أضعه إزاء هذا الدين الهمجي؟ أتدعوني على هذا ثم تراني من ذوي الألباب؟

فقلت : اتئد عافاك الله ولا تستعجل، ولا تمدن لسانك في دين لم تعرفه بعد، ولا تؤاخذ أهله بسلفه ينتسبون إليه انتساب سفلة الغربيين على المدينة الغربية التي ترى لها ما ترى من سمو المدارك ورجحان العقل، وإلزام الفضيلة، فبحسبك أن تعرف هذا الدين من أسسه ومن أصوله ومن منابعه الخالصة، ثم لك عقلك بعد ذلك، فأما أن تقبله فتكون احد أهله، فالحق أحق أن يتبع، وأما أن تزداد بصيرة فيما أنمت عليه الآن، وتعض عليه النواجذ على الأبد. أقول له هذا وهو مطرق إطراقا يسوده الصمت والسكون.

فقلت له : ارفع راسك، وقل ما بدا لك بكل حرية، فإنني لا أزال لك اليوم كما كنت لك أمس، وهاك يدي عهدا وثيقا أن هذا الدين إن لم يظهر لك وأقنعتني بأنه ليس بدين الحق ولا بدين المدينة، أن أعلن على الملأ الباءة منه، ثم أضع يدي في يدك على السواء، فنبقى على مذهب الفلاسفة الروحانيين إلى الأبد.

فقال : يا فلان، قد أوقفتني والله في موقف يصعب على صعوبة عظيمة، كأنما أحاول أن أحمل على كاهلي كل جبال الدنيا، فانزل بنفسي حتى أساوي بها أنفس الهمج الرعاع إذناب الإنسانية، وقمامة العالم ؟ ابعد أن كنت أعدني متمدينا شرقيا ذا مبدأ عظيم احلق في أجواز الفلاسفة إلا علين المفكرين، أسف على دركات مغفلين لم يعرفوا بعد من نور المدينة الوهاج ولا من الفكر

العصري الوثاب إلا كما يعرفه الحيوان الأعجم من العقل الإنساني؟ حقا انه لموقف ما مر بي مثله في كل حياتي، ولا كنت أظن قط بأنني أقف فيه يوما ما من أيام حياتي، عش رجبا تر عجبا.

فتركت الرجل يهذي هذيان المحموم، يتفجر تعصبه على أمته المسكينة بما يحتوي عليه من مقت شديد كأنما وترته أهله وماله، فقد رأينا الرجل يرضى كل الرضي أن يصبح لكل أجنبي، ثم لا يحمل على نفسه هذه الحملة أن تبين له خطاه في الإصاخة إليه، وأما أمنه المسكينة التي اشرب بين دراساته بعضها ومقتها وازدراءها واتخاذها المثل المضروب في الانحطاط والهمجية والرذيلة والجهل العميق، فانه لا يرضى حتى أن يصيخ على قولتها ليبين له أهي على الحق أم على الباطل، ولم تقدر دراسته للفلسفة ولا اعتناقه لمذهب الفلاسفة الروحانيين ولا إجالته الفكر والبحث فيما وراء المادة أن يخفف من مقته لها، فهكذا هذه الطبقة التي سقطت في هوة عميقة قلما تصعد منها إلا أن يشاء الله.

فقلت له بعد ما أفرغ ما في جعبته على رأس أمته: دع عنك الآن هذه الأمة وما اتصفت به، فإنما ادعوك على النظر في دينها فقط بكل عقلك، فهل تستبعد أن يكون أصل الدين صحيحا، ثم يحرف إتباع الدين ذلك الأصل، فيسقطون مثل هذا السقوط؟ فقال : لا بل ذلك ممكن، وهذا لا استبعده.

فقلت: أرأيت هذه المدينة التي خلبت نفسك ولا ترى الحياة بدونها، أو ليس أن أصول الفضيلة التي يرفع نباريسها الفلاسفة فيها غير ما يتمشى عليه فيه غالب أبناء المدينة، وإلا فما هذا الجشع الهائل الذي يسود هذه المدينة؟ وما هذه الأمواج الزاخرة من الرذيلة والحسد والبغضاء بين أفرادها فضلا عما

بين أهمها؟ وما هذا التناحر على اكتساب الدرهم فيها تناحرا يهلك الرطب واليابس؟ فأين موقع تلك الروح كل بيئة؟ بل أين آثار النفوس التي تعير ادني أصاخه للمثل العليا التي لا يزال غالب الجرائد تفيض به أعمدتها فيضا؟ فما يكون عذرك إزاء بيئة مدنيتك من الاعذار، فهيئ منها لهذه الأمة التعسة التي حملت عليها حملتك الشعواء وصوبت نحوها سهامك النافذة، فقال: إنني اعهد منك دائما كلما تفاوضنا في شيء فخالفتك فيه، أن إنقاذ إليك أخيرا مرغما، لما لا تزال تلقبه على من براهين لا أجد غالبا مناصا من الانقياد إليها، وان لم أكن أحيانا انشرح بها صدرا، وأطيب بها نفسا فكأنك تسحرني.

فقلت له: إنني لا أجاذبك إلا من جهة عقلك، ولا أحب منك إلا عقلك وحده، وأما عاطفتك التي لا تنقاد غرائزها إلا بمال فإنها وعاداتها فلا شان لي معها، ولولا إنني اعلم أنك عاقل وأنك منصف وأنك تطيع لما يملي عليه عقله حججه، وان لم ترضه عواطفك، ولا طابت به مشاعرك، لما اهتممت بك اهتماما انفق فيه من نفيس عمري، ومتى كانت الحقائق بنت العاطفة والشعور؟

وأما ادعاؤك أن كلامي يسحرك، فاعلم أن الحق هو الذي يلقي عليك جاذبيته، ويرسل غليك كهرباءه، ولا يظهر المنصف من غير المنصف إلا بالانقياد للعقل، سواء انقادت مشاعره وعواطفه أو أم تكن من المنقادين، فاحمد الله على ما اتصفت به من الإنصاف، ثم على منا تخلقت به من الصراحة، فكل من لم يتصف بالإنصاف ولا كان من أرباب الصراحة، فلا خير فيه، فان الحق حق دائما، وهو دائما كالشمس في أربعة النهار وضوحا وإشراقا، وإنما يختلف الناس في الاتقاد إليه، والإقدام نحوه بكل شجاعة تدرس على العاطفة والمألوفات.

ثم قلت له : دعنا من كل هذا، فإن الوقت قد أزف، فهل تجد منك استعدادا تاما لخوض هذا المبحث الجديد في نظرك أنت، وان لم يكن في نظري وفي الواقع إلا تتمة لما كنت فيه منذ شهر ؟

فقال : كل شيء اقبله منك إلا المساواة بين بحث يدور حول ما عند الفلاسفة العظام من الغربيين، وبين بحث مسف على الدركات حول الخرافات المتكافئة الذي تموج فيه أمم الانحطاط والتأخر والجهالة، أمم الشرق، فلو كان في الشرق أدنى ذرة من الحق، لما اصطدمت الديانات التي ابتلى العالم بها من عند هؤلاء الشرقيين وهذه المدينة الغربية المحلقة على كل علياء بعقل جبار، وخطا واسعة، وتجريبات ميزت ما عند الأمم، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، فقد ظهر أن تلك الديانات الموسوية والمسيحية والمحمدية من الزبد الذاهب جفاء، بل من الغناء الذي تغادره السيول جانبا، بل من المكروبات التي تعشش في الصدور فتتآكل بها الإنسانية وتصدا بعض العقول. فبالله عليك خبرني هل تقدمت أمم الغرب إلا يوم نبذ قادتها وعلماءها ظهريا ديانات الشرق جمعاء؟ أولا تعرف كل هذا؟ أو لم يبلغك ما كتبه أمثال (فولتير) من المجلدات الضخام في إنقاذ الإنسانية، فكان له تأثير عظيم مهد السبيل على الثورة الفرنسية 1789م؟

فقلت : أسالك سؤالا واحدا فأجبني عنه، وهو هل يجد الأطباء وعلماء التشريح في أدمغة الشرقيين والغربيين من فرق في تجاويفها؟ وهل الغدد التي تكون في أجساد الغربيين خلت منها أجساد الشرقيين؟ فقال: لا، والحق يقال، ولكن أين ما نحن فيه من هذا ؟

فقلت: من أين جاء جدود السكونيين والجرمانيين والغوطيين وكل أمم أوربة، أوليس أنها كلها وردت من آسيا؟ فقال يلي.

فقلت إن الشرقيين والغربيين إذن من سلالة واحدة، وعقولهم ومداركهم متقاربة، تجد من هؤلاء ومن هؤلاء تشابها في الذكاء في طبقات، وبلادة وتغلفلا من طبقات أخرى.

فقال: لا ها الله، لا نعمد على عقول اخترعت القطار والسيارة والطيارة والغواصة والمذياع والهاتف وكل ما تفتخر به المدنية اليوم، وتدين به في تقدمها وتفوقها فنحكم بأنها عقول همج رعاع ذوي أوساخ ومدارك سخيفة، فأين أنار عقول هؤلاء الشرقيين؟

فقلت له: إن لكل وقت مخترعات ومكتشفات، فمن يا ترى الذين اخترعوا المسائل الأولية في هذه المدنية، فمن استخرجوا الحديد والنحاس والمعادن أولا، ومن الذين اهتدوا على السفن البحرية، واخترعوا بيت الإبرة والساعات الوقتية وصناعة الحرير واستنبطوا الزجاج واخترعوا البارود ومبادئ المطبعة، ورفعوا أمثال الأهرام وبنوا السدود، واخترعوا تطعيم الأشجار، واخترعوا الكاغد والكتابة وتبوا العلوم ونظموا الأسرة، ونشروا نظام الحكومات والأمم بعضها إزاء بعض، واكتشفوا واخترعوا مئات بل ءالافا مما يعد أسسا لهذه المدنية. أليست العقول التي فعلت كل ذلك عقول الشرقيين؟ فإلي أين ذهب علمك بالتاريخ، فهل جهلت ما أثره الفينيقيون والمصريون والأشوريون والصينيون والهندسيون أمس، ثم اخذ اليونان عن المصريين، ثم الرومان عن اليونان ثم العرب عن اليونان والرومان والفرس والصينيين والهنديين، ثم الأوربيون اليوم عن العرب؟ أو لا تقع أثناء ما تطالعه من كلام المنصفين من علماء أوربة على ثناء عطر على مدينة العرب، كالعلامة (دوزي) والفيلسوف (غوستاف لويسون) والمؤرخ (سيديو) أقرا مؤلفات دوزي، ومدنية العرب لغوستاف

لوبون، واسمع ما قاله سيديو: أن العرب هم أساتيذنا ومعلمونا. وقال فلان الأمريكي ما معناه: إننا لا نزال نتعجب من العرب، فكم فكرة نحسب إننا السابقون غليها ثم ينكشف الغيب من ثنايا التاريخ عن أن العرب سبقونا غليها. ثم قل له بعد ما سردت عليه نصوصا من علماء أوربيين منصفين: أن العلم مشاع بين الناس أجمعين، وفوائده ليست شرقية ولا غربية، والمدنية لا تستقر في امة بالخصوص، فقد صار تتنقل من امة، حتى بلغت اليوم أوجها. وسطعت أنوارها، فألقت عصاها أمام كل إنسانية، فلا يضير الغربيين أمس استغراقهم في النوم، وجهلهم العميق في المدنية، حتى كان الانكليزيون في الوقت الذي تزدهر فيه مدنية الشرق على أيدي العرب، همجا لا يعرفون كيف يلبسون، وإنما لباسهم المعتاد جلود الضأن والمعز يسلخونها فيقلبونها فيولون الصرف والشعر إلى أجسامهم، كما لا يضير الشرقيين اليوم تأخرهم عن شاو أمم أوربة، وإنما عليهم أن لا يستكفوا أن يقتبسوا منها ما يلائم مزاجهم وبيئتهم من الحضارة والصنائع والعلوم، فإذا بهم بين عشية وضحاها أمثال الغربيين سواء بسواء، وهذا عين ما يفعلونه بالتدريج، ثم قلت له بعد أن أسهبت في الموضوع : أتظن أن ما اخترعه الشرقيين أو اكتشفوه في عالم الطب والهندسة والحساب والنجوم بمراصدهم المعلومة في بغداد والشام وما وراء النهر والأندلس وصقلية، وما اكتشفوه في عالم النباتات والمعادن وما اخترعوه من كماليات المعايش لا يكون له مثل ما كان اليوم للقطار وما ذكرته معه، فان لكل جديد في وقته من اللذة والروعة ما يخلب الألباب، ويستوقف الأبصار، ثم ما يدريك أن تكون مدنية اليوم كلا شيء في مدنية الغد. أو نسيت أن لمؤلفات الفارابي وابن سينا وابن رشد وابن الطفيل وأمثالهم عظيما في تكوين

فلسفة هذا العصر وتوجيه عقليته إلى ما تتوجه إليه ؟ أو ليست كتب هؤلاء تدرس في كليات أوربة إلى ما قبل قرن بقليل، ولا يزال كثير منها يراجع إلى الآن، فان جهلت كل هذا فراجعه في مظانه.

الآن وقد سمعت ما سمعت: إلا تزال تعزف عن النظر إلى ما عند الشرقيين آباء مدنية أمس، والتلاميذ والعشاق لمدنية اليوم؟ وما يدريك انك تقع في دراسة دينهم على ما كنت تظنه بمبعد منه جهلا منك، كما وقع لك الأمس القريب يوم أن وليت وجهتك إلى دراسة ما وراء المادة، ثم لم تنشب أن وقعت فيما وراء المادة بدراستك على ما تتعجب به من نفسك حين كنت لم قبل من الجاهلين.

إن الحق يا هذا الحق، ليس بشرقي ولا غربي، والشمس في الغرب هيه هي في الشرق، فما لكم أيها المفتونون بالغرب وبهرجته ومادته المصقولة اللماعة تصدفون، ومن الحقيقة تستنكفون، فأنى توفكون ؟ أم أنهم قوم أغرار أغمار تجهلون؟

فقال : لا وأخذك الله بقولتك هذه، فإنها لكلمة غير لائقة بأدب مثلك، فغن الكلمة الشائكة أثيرت في النفوس، فتثور منها عصبية تعمي الأبصار وتأتي على نور العقول وتفيض حلم الحليم. فقلت : مسامحة، فإن الإنسان وإن بلغ من سعة الصدر ما بلغ ليخرج ويضيق إذا رأى الحق يغمط والنور الوهاج ينظر إليه كما ينظر إلى الظلمات.

فقال : الحمد لله على ما وفقني الله من الثبات أمام كلمتك هذه، وحين كان الحق هو طلبتنا معا، فإنه لا يضيرني أن ادخل معك في الذي بكل إقدام.

فقلت : الحمد لله الذي وفقك إلى الحق المبين، ولولا أنني اعلم منك استعدادا لما ادعوك إليه لما بذلت هذا المجهود العظيم، ولكن من تطيب منهم السرائر أمثالك لا يخيب عنهم ناصح، والىن نختتم الموضوع، فالله يوفق ويسدد.

ثم قلت له : أن تنس كل شيء فلا تنس أن لا تفلت منك مثل هذه الكلمة الشائكة نحو أخيك السيد العربي وأن سمعت منه ما سمعت، فذلك البق بك. فلا تقف في مثل موقفي تعتذر منه كما وقفت أنا ءانفا حين بدر مني ما بدر أقدم الاعتذارات. فقال: إنني أعدك بذلك وعدا وافيا أن شاء الله أن شاء الله، فصار يكرر أن شاء الله، فأردت أن يبرد الجو قليلا بنادرة احكيها تذكرتها الآن. فقلت له :

ذكرتني الآن وأنت تكرر أن شاء الله حكاية حجي. فقد ذكروا انه خرج من داره بدراهم مصرورة في طرف عمامته التي ألقاها وراء ظهره متدلية، فقيل له إلى أين؟ فقال أني ذاهب إلى السوق لأشتري لي بقرة. فقيل له قل إن شاء الله. فقال: أقول لكم أنني سأشتري بقرة، والبقرة موجود في السوق، والثمن معقود في طرف عمامة المتدلية من وراء ظهري، ثم تقولون أن شاء الله، أنني سأشتري البقرة ولا شيء يمنعني والسلام. فرءاه بعض اللصوص وهو يجول بين زحام المتزاحمين في وسط السوق، وشاهد ما في عمامته المتدلية، فتبعه حتى وجد منه غرة أثناء زحام شديد، فقرض طرف العمامة بمقراض، فلما اشترى جحى البقرة أهوى إلى عمامته ليؤدي الثمن، فلم يجد شيئا، فوقف واجما فعرف من أين أتى !! فصار يقول أن شاء الله. فقيل له ماذا وقع لك؟ فقال سرق مني الثمن أن شاء الله، ثم صار لا يقول كلمة إلا واتبعها أن شاء الله، فحين طرق الباب وقيل له من الطارق؟ قال حجي إن شاء الله، فقيل

وأين البقرة؟ فقال سرق المال الذي ذهبت لأشتريها به أن شاء الله، ثم لم يزل ذلك ديدنه كلما كلم أهله.

فلما سمع الحماد الحكاية ابتسم، وقال : إنك لذو نوادر فلولا أن الجد يغمرك أحيانا بصلابته وتجهمه ووقاره لكان لك في سوق النوادر رواج ما مثله رواج. ثم قمنا من المجلس وأنا احمد الله على النجاح.

[9]

## في المؤتمر

أطلت الفكرة كثيرا في تنظيم المؤتمر تنظيما ناجحا يجمع أطراف ما يتداول فيه، خوف أن يستولي عليه الاختلال وعدم النظام؛ فاستشرت إبراهيم في كيفية تنظيمه، فقال اكتب أنت أولا ما ظهر لك في كيفية نظامه ثم اعرضه عليّ، ففعلتُ ذلك، فتلخص لنا بعد مداولة ما يأتي:

الرئاسة لهذا العبد وفقه الله.

- ممنوع أن يحضر غير الإخوة الأربعة؛ إلا أنا والفقيه أحمد بن عبد السلام.
- المداولة رأسا لا تكون في أصل النقط التي تتخذ أساسا للمناظرة إلا بين الرئيس والدكتور، ولا يشاركهما في المناظرة أحد، إلا في وقت الاستدلال، فلكل من الحاضرين أن يسوق دليلا أو نصا مما يستحضره بعد استئذان الرئيس بعلامة اصطلحنا عليها، ومن كانت له ملاحظة كيفما كانت فليقيدها في مذكرة أمامه ثم يعرضها على الرئيس بعد انقضاء الجلسة، ثم للرئيس الحرية التامة في إلقائها على البساط للمداولة حولها، وفي طيها بالكلية إن لم ير فيها فائدة ترجع على المقصود بالمؤتمر بالنفع المجدي.
- يتولى كتابة محضر المؤتمر إبراهيم، ويجتهد أن لا يغادر موضوع المداولة في الجلسة التالية.
- يذكر الرئيس في آخر كل جلسة ما يظهر له أن يكون موضوع المداولة في الجلسة التالية.

- تؤخر الملاحظات إن لم تكن في لب الموضوع، إلى أن يتم كل ما يتعلق بمسائل الموضوع، إن رأى الرئيس فائدة ما، في تلك الملاحظة.

- ممنوع مقاطعة من يسترسل في حديثه حتى ينتهي منه، فإن ذلك أوفق لأدب المناظرة ولتمام الحجج والبراهين.

- على إبراهيم أن يهيئ مجلس المناظرة بمقاعده ومناضده – كما يظهر له وفق ذوقه – في كل الجلسات المتوالية.

- يجب كل الوجوب ترك كل ما يمس بأي دين أو معتقد أو رأي أو عادة، فلا هزء ولا سخرية ولا ليّ وجه ولا صفير ولا تصفيق ولا قيام ولا تصعير خد، فينبغي ملازمة الأدب التام والاحترام الزائد ومجانبة الغضب وتوجيه الكلام توجيها ينافي سوء الأدب.. ومن خالف هذا فإن الرئيس له أن يخرجه.

- يجب أن يعرف ان الحاضرين كلهم متساوون، فلا تفاوت بسن ولا دين ولا زي ولا بأي شيء، فلا يعلو إلا من علت حجته، ولا يسفل إلا من خانه الحظ في براهينه، ومن ضاق ذرعا بكل هذا بعد أن قبله، فلينسحب عن المجلس بالتي هي أحسن.

- الاجتماع مرتان في اليوم، في الصباح وفي العشي.

هذا هو برنامج المؤتمر بعد المداولة حوله، وفيه نقط ما كُتبت فيه إلا من أجل السيد العربي ورفيقه، فإنهما لا يعرفان قط أنظمة الأندية، ولا ادب المناظرة، وقد عرفنا مما كنا نراه في مماحكة بعض علمائنا في مناظراتهم،

مجازفة تتخطى فيها حدود الأدب، ولذلك حاولنا ان نلجم صاحبينا بما ذكرنا، لعلهما يقفان عند الحدود، وإلا فلو أطلقنا لهما العنان، لأفسدا علينا الخطة التي نسلكها إلى استرجاع حماد إلى حظيرة الإسلام، فإننا إن نجحنا في ذلك، يكون أمر غيره من الإخوة جللا هينا يسيرا غير عسير.

دخلنا في الساعة التاسعة في يوم السبت 29 من شهر جمادى الأولى إلى قاعة الاجتماع، فوجدنا إبراهيم قد نظم المقاعد وكتب على كل مقعد اسم صاحبه، وجعل مقعدي في الصدر، وفي مقابلتي مقعد الدكتور، وعن يميني الشيخ الصوفي وعن يساري الفقيه، ومقعد إبراهيم عن جانب الدكتور ويبتعد عنه قليلا، ووجدنا الماء البارد مهيئا، ولفائف التبغ أمام مقعد الدكتور، وحقين فيهما ما يستنشقه الفقيه والشيخ الصوفي، وما في حق الفقيه هو المسحوق المعهود استنشاقه (التنفيحة)، وما في حق الشيخ مسحوق عطر هياه إبراهيم للشيخ، يذهب به ما يجده من اثر تدخين الدكتور الذي سيضيق به صدرا، مع نصحنا للدكتور أن يقلل منه.كنت أنا والدكتور أول الداخلين، فأعجبني من الدكتور تظاهره بالأدب التام نحو أخيه الأكبر، فقد أدى له – والحق يقال – ما عليه حين حياه، وغن كان الشيخ لم يوف للدكتور نصيبه، بل اشمأز عنه، وآنف من أن يكثر معه الخطاب اللين إلى الحد الذي تقضي به العادة عند اللقاء بعد فراق طويل، فتوجست خوفا أن يفسد علينا الشيخ ما نحن فيه، ولكن لاتكالي على الله تناسيت ذلك.

جاء الشيخ وقال لأخيه إبراهيم: إنني لا آلف أن أجلس جلستكم هذه أكثر من عشر دقائق. فبادر إبراهيم فأتى بحشية وتكأة فبسطهما له، فاستوى الشيخ كما يريد وارتفق.

ثم قمت فألقيت خطبة الافتتاح ونصها: الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، ووضع في صدره نورا يعرف به النهار المشمس من الليل البهيم، وهداه إلى سواء السبيل، بعقل وضعه بين جنبيه، وجعل له السمع والأبصار والأفئدة يدرك بها ما خلفه وما بين يديه، وخلق من بني آدم الرجال العظام من جبلهم على إرشاد الحيارى، واستصحاء السكارى، حتى يعرف المتطلب للحق، أن كان عند المسلمين أو اليهود أو النصارى.

أما بعد فإننا اجتمعنا في هذا المجلس لنبحث في حقيقة واحدة هي موضوع اجتماعنا لا غير، ألا وهي الإسلام، ننظر فيه هل هو دين الحق؟ وهل يليق بالمتمدنين اليوم؟ وهل هو دين الرقي؟ وهل يتسع صدره للمدنية التي تبهر اليوم الأبصار؟ أم هو غير ذلك كله فينبذ؛ فإن بعض من حضر معنا يرغب أن يعرف هذه الحقيقة، ولذلك وحده عقدنا هذا المجلس الذي سيستمر كل يوم مرتين، حتى يصل على هذه الحقيقة. وتلافيا لانتشار الأبحاث وبلبلة الأفكار، وللحرص على لزوم النظام وأدب الخطاب والوصول إلى النتيجة التي هي طلبتنا أجمعين، أحطنا هذا الاجتماع بهذا القانون، كما ظهر لمن شرفتموه قبل، وجعلتم إليه إدارة هذا المجلس وتسيير هذه المحاورة إلى آخرها، وهاكم بنود هذا القانون التي تتطلب من كل واحد المحافظة عليها، ونحن نشكره على ذلك سلفا منذ الآن، وإنما جعل الإمام ليؤتم به، وأنا أستسمحكم أيها السادة في نص ذلك القانون وهو ... إلخ.

ثم تلوت القانون كما تقدم، وبعد تمام تلاوته طلبت من الحاضرين أن يعلنوا الموافقة عليه إن ارتضوه بطيب نفوسهم، فقال الشيخ: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ. صدق الله العظيم.

وقال الفقيه: إن من الواجب والمحتم على جميع المؤمنين – فاعلم – أن يخضعوا فيما أبيح للإمام، وأن يروه واجبا على التمام.

وقال الدكتور: قال العلامة القانوني فلان الهولندي: الخضوع للقوانين بطيب نفس من مميزات المهذبين المتمدنين الاجتماعيين، والإنسان مدني بالطبع.

ثم قلتُ: إن كانت هناك ملاحظة تتعلق بهذا القانون فإنني أتقبلها، لأن أمورنا كلها شورى.

فقال الشيخ: وشاورهم في الأمر، كما يقول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام.
وقال الفقيه: إن الله يقول في صفة المؤمنين: وأمرهم شورى بينهم.

وقال الدكتور: إن المدينة الفاضلة التي يحلم بها الفلاسفة أبدا، لا يرون أساسها إلا الشورى.

ثم أعلنت اختتام جلسة المفتتح، وموعدنا الرابعة في العشية، والموضوع كلمة في الإسلام مجملة.

## لا جمود ولا جحود!

علال الفاسي

وقف الناس من الديانات السماوية موقفا غريبا، لأنهم لم يعرفوا قيمتها ولا قدروها قدرها، فمنهم من تمسك بالعاطفة الدينية وحدها، وحمله الحب لها والحرص عليها على أن يأخذ كل ما ينسب للدين على أنه دين، متجاهلا ما أحدثته الظروف التاريخية والاجتماعية، وما أدخلته في الديانات مما ليس منها حتى انحرفت بها عن الطريق السوي والدعوة المثلى، التي بلغها الرسل وآمن بها الأنبياء.

ولولا ذلك الانحراف لما بعث الله الرسل تترى، ليعيدوا الدين غضا، طريا وليجددوا للناس ما أبلاه الانحراف من أمر دينهم، حتى كانت الخاتمة هي بعثة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، التي وافقت مرحلة معينة من التطور الإنساني، بلغ بها البشر مبلغ الرشد، فكان محمد نبي العقل ورسول الإصلاح، مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومهيمنا عليهما وعلى غيرهما من الكتب المنزلة ومصلحا لما أفسده الأحبار والرهبان من آثارها.

وقد كان في مقدمة ما دعا إليه، النظر والبحث والاهتمام بشؤون المجتمع وأمر الناس، فكان بذلك خير نبراس يقتدى به في جميع العصور، ولكن أمته لم تنج مما أصاب غيرها من الأمم، فانحرفت عن الطريق وأولت الآيات المنزلة والأحاديث المحكمة، التأويلات التي تتفق مع أهوائها ومصالح بعض أشخاصها، وفرقت دينها فكانت شيعا، وغيرت سبيلها فملأت أعمالها بدعا، وحادت عن السنة في الاعتقاد وفي السلوك، فأصبحت تؤمن بالخرافات وتنهج نهج الأباطيل، وتعاقبت الأجيال على ذلك، ونسي الناس من أمر الدين الشيء

الكثير، وأصبحوا يعتبرون ما تعودوه من التقاليد البالية من صميمه، وإن كان أبعد الأشياء عنه، فتعصبت العامة للبدل، وتملق لها الخاصة، فأخذوا يبحثون عن مبررات أعمالهم، ويستنبطون لها البينات.

وهكذا تمت المؤامرة من الكل على إفساد الدين وتعمية الحقيقة، وكلما قام داعية ينشر الإصلاح أو يهيب بالتجديد، عاملته الخاصة معاملة المفسد على الناس عقائدها وشؤونها وشايعتهم العامة، فنبذوه، لأنهم أحرص على ما ألفوه باسم الدين، لاسيما وقد أيده المتملقون لهم من علماء السوء، فيستمر الحال على ما هو عليه، ويتفق المستفيدون من الوضع حكاما أو غيرهم، على ما يهدئ الجو، ويبعد القلق عن الأوساط الشعبية، فيؤيدون أولئك الخاصة لإخضاع العامة، ولم يلبث الكل أن أصبح يعتقد أن ما هم فيه هو الحق، فمردت نفوسهم عليه وجمدوا، حتى أصبحوا مخلصين في جمودهم، لا يستطيعون قبول أية فكرة تتنافى مع أحوالهم، وتعمل على تغيير أوضاعهم، وقد حسبوا أنهم ما داموا يصلون ويصومون ويحجون أحيانا، وربما أخرجوا بعض الزكوات، فقد تمسكوا بالدين، مع أن الإسلام ليس منحصرا في بعض العبادات دون بعض ولا يمكن أن يجزأ أمره ونهيه، وخصوصا بالنسبة للمجموع، فإذا كان الفرد قد يعصي بمخالفة بعض الأحكام فلا يخرج من الدين، فإن الأمة إذا أجمعت كلها على ترك ذلك الحكم فقد أوشكت أن تعتبر في عداد المارقين المنحرفين عن الطريق.

وقد كان الجانب الذي انحرف عنه الناس من شؤون الملة، أكثر من غيره، هو ما يرجع للنواحي الاجتماعية وما يمس الحق العام، أو يتناول صلة الأفراد بالحاكمين، وصلة مجموع الأمة ببعضها.

وقد كان ذلك نتيجة للسيطرة التي حصل عليها بعض الساسة في الظروف التاريخية الإسلامية، فقد عاق ذلك عن تنمية المنظمات الحرة، وعن ازدهار الأفكار التحريرية التي تجد أصولها في مختلف الآيات والأحكام الشرعية.

واتصل هذا الانحراف بعامل الجمود على ما ألف الناس من الخرافات فتأولوا عقيدة القضاء والقدر الإسلامية على أنها جبر لا يسمح بالعمل على تغيير الأحوال وإصلاح الشؤون، لأن ما وقع في العالم لابد أن يدوم، إذ هو مطابق لمقتضى إرادة الله التي لا تقبل التبديل، وهو تأويل لا يتفق مع الحقيقة الشرعية، لان إرادة الله الخاصة تابعة لإرادته العامة، التي تعنى تسيير شؤون العالم بمقتضى نواميس أودعها فيه، وطبائع وضعها في كل الأشياء.

كان لهذا الجمود أثره الفعال في وقوف سير تاريخ الأمة الإسلامية إلى الأمام، ولولاه لما وقفنا في منتصف الطريق أولا، ثم أخذنا نتقهقر إلى الوراء، حتى ضاعت معرفتنا وذبل غرسنا وكدنا لا نعرف من العالم إلا ما توحي به الأوهام، وما تتحدث به الخرافات أو ترويه المناقب. لقد كفرنا بالشهادة فلم نعد نقرأ لها حسابا، وحولنا الغيب الإلاهي إلى غيابات من الجهل لا تتفق مع شيء مما أمرنا به، أو حذرنا من الوقوع فيه.

وفي هذا الوقت نفسه، كان العالم الأوربي يتدبر فيما اقتبسه من تعاليم ديننا وما استمده من أصول حضارتنا، ويحاول أن يبدأ السير من حيث وقفنا وأن يعمل على دراسة العالم ومظاهره والاستفادة من موارده المختلفة، حتى اكتشف آلة البخار التي غيرت مجرى الحياة وطورت مقادير الإنسان.

وبينما نحن نغط في رقادنا، أو نهيم في سبحات المناقب المصطنعة التي نخدر بها إحساسنا، إذا به يقطع المسافات المتعاقبة، ليقفز بالاقتصاد العالمي

هذه القفزة التي مكنته من زمام الأرض وما تحتها، والسماء وما حولها، ولم ننتبه إلا وطنين آلاته يقلق راحتنا، وأدواته المهيمنة توقظنا من مرقدنا، فحاولنا الإفلات منه، ملتجئين إلى عالمنا الوهمي ومناقبنا المصنوعة، ولكن ذلك كله لم يجدنا نفعا، ولا حمانا من سيطرة الاقتصاد العصري وما اشتمل عليه من تقدم في الصناعة وفي المعرفة، وكان ما أرادته السنن الكونية من سيطرة الذين أصلحوا أوطانهم وأساليب حياتهم علينا.

لقد كانت محنة أرادها الله، أيقظتنا من سباتنا، ونبهتنا من غفلتنا فتقدمنا نتساءل: ما هي الأسباب وما هو الدافع لسقوطنا ونهوض غيرنا؟ ما هي العوامل التي جعلت تلامذتنا بالأمس أساتذة لنا بل سادة يحكموننا؟

والتجأ الجامدون إلى الرضى والاستسلام، وقد حلوا المشكل مع أنفسهم، لأنهم لا يبحثون عما يغير الوضع، ولا ما يبدل الأحوال.

أما الفئة النيرة فقد اندهشت من هول الموقف، وأنساها الذهول ماضي أسلافها وتعاليم دينها، وحسبت أن ما حصل عليه الغربي هو ذاتي له، وأن الدين وحده هو العائق عن النهوض واللحاق بركب الحضارة الأوربي.

وكان المنطق الواقعي الذي يسير تفكيرها هو أن القوة والحضارة عند الغرب، فيجب أن نقتدي به في كل الأشياء، وقد كفر الغرب فيجب أن نكفر، وإلا بقينا في الحضيض الذي نحن فيه!!

ولكن هذا المنطق غير سليم، لأنه لم يتعمق أسباب انحطاطنا ولا أسباب رقي الغرب، ولأنه لم ينظر إلا لظاهر المسلمين في إبان تقهقرهم.

إنه يحتج بجمود الجامدين على الدين وعلى تعاليمه، مع أن الإنصاف

يقضي دائما بالتفرقة بين حقيقة الإسلام وبين ما عليه المسلمون، كما أن من الخطأ اعتبار أن الغرب قد كفر حين تابع طريق النهضة الاقتصادية وشايع مقتضيات الزمن، بل إنه أكثر ما يكون إيمانا بالنواميس التي أودعها الله في الكون، وهو لم يكفر بغير الجمود الذي علمته كنيسة العصور الوسطى، والذي يتنافى مع غايات الديانات السماوية جمعاء.

وهكذا وقف المسلمون - والمغاربة منهم - في مفترق الطرق، يبحثون عن الوسائل التي تعيدهم لما كانوا عليه من مجد ورفعة، وارتبك اتجاههم بين آثار الجمود ودعوة الجحود، وزادهم ارتباكا أن الغرب نفسه غير متفق في برامجه ولا في خططه، فله هو الآخر جموده متعدد الألوان والأشكال، وله هو الآخر جحوده، مختلف الأنظمة والأوضاع.

فهل من الحكمة أن نشايع الغرب في كل أموره؟ ونتابعه في خلافاته فنتفق حيث يتفق ونختلف بالنيابة عنه أيضا؟

أم الواجب يقضي علينا أن نعتبر أنفسنا أمة قائمة بنفسها، وأن ما يجمعنا مع الغرب هو أننا جميعا من عالم إنساني واحد، تسيره سنة كونية واحدة، وأنه في دائرة هذه السنن الكونية يجب أن نبحث عما نبذناه واقتبسه الغرب، فنستعيده، ونستفيد من تجارب تطبيقه، وما لم ننبذه من تعاليم السماء، فنحتفظ به وإن كفر به الغرب الراقي.

ومتى قمنا بهذا البحث، فإننا نجد الغرب قد نجح بالتطور العلمي الآلي الذي حصل عليه، وليس في الإسلام ما يعوقنا عن اتباع ذلك النهج الذي سلكه، فلنبذل كل ما في مستطاعنا إذن للحصول على ثقافة علمية متينة، وعلى

مقدرة فنية قوية ثم لنعمل على تطوير اقتصادياتنا وتحريرها من عوائق الماضي وموانع الحاضر الاستعماري.

وهذا لا يتوقف على أكثر من نبذ الجمود، والرغبة في تبديل أوضاعنا وتغيير أحوالنا، واليقين في أن الدين يفرض علينا أن نتعلم كل ما في الوجود من أسرار، وأن نسخرها لصالح الإنسانية وخدمة رسالتها التي هي عمارة الأرض وازدهارها وهناءة أبنائها.

أما ما عدا ذلك من التعاليم الإسلامية، فقد احتفظنا بالاعتراف بها، فيجب أن نثبتها في نفوسنا وفي أخلاقنا، وهل هي غير اعتبار العمل فضيلة، والاحتراف خلقا كريما، والطاعة والمحبة والإخاء والعدل والإحسان والكرم والوفاء والشجاعة والمواظبة، وغير ذلك من صفات ذاتية للمسلم، يجب أن يكون باتصافه بها شهيدا على الناس ورقيبا؟

وهل يمكن لمجتمع أن ينهض إذا لم يحتفظ بهذا الصفات الإنسانية التي كان إيماننا بها في مقدمة الاستعداد الذي نشعر به لترميم ما خرب، وإعادة ما انهدم من صرح حضارتنا ومجدنا؟

بين الجمود والجحود
الناشر : وزارة الثقافة والشباب والرياضة -قطاع الثقافة.
مديرية الكتاب والخزانات والمحفوظات
17 شارع مشليفن، أگدال ـ الرباط
الهاتف : 32 40 27 0537